رَجُلٌ ابْتَلَعَتْهُ السِّيَاسَةُ

رجُلٌ ابْتلعتْهُ السّياسةُ
مجموعة قصصية
رجب حمزة
الطبعة الأولي .. ٢٠١٣
الغلاف : إيمان صلاح
مراجعة لغوية: رجب حمزة
اخراج داخلي : الحلم للدعاية والاعلان

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٢٠٣١٠
الترقيم الدولي : 978-977-6412-39-2

الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف من شارع مؤسسة الزكاة - المرج
محمول : 01141824562
dar_el7elm@hotmail.com

رجُلٌ ابْتلعتْهُ السّياسةُ

قصص

رجب حمزة

مَجموعةٌ قَصَصِيّة
(تَمْزجُ بين الخَيالِ و الواقِعيّة)

الإهْداء

إهْداءٌ خاصٌ لأُمِّي، ولكُلِّ مَن شَجَّعَني بكَلِمةٍ أو بَسْمةٍ أو حتَّى بأعْجبَني علَى مَوقِعِ التَّواصُلِ الاجْتِماعيّ، إلَى هَؤُلاءِ جَميعًا شُكْرًا جَزيلًا لَكُم.

رجب حمزة

المقدمة

بِسْمِ اللهِ الأعْظمِ الّذي دوَّى اسْمُهُ الكَونَ، ورُفِعَ الخَلقُ بذِكْرِهِ،
والصَّلاةُ والسَّلامُ علَى أُولي الهُدَى، ومَن صاروا خَلفَهُم يَسْطُرون بالقَلمِ.
فما وَطأتْ الأقْلامُ، وما عَلتْ الكَلماتُ إلّا لرِفْعةِ هَذا الإنْسان.

أمّا بعد:
فهذه باكورةُ أعْمالي القَصصيَّةِ، وما زِلتُ أحْذفُ كَلمةً مِنها وأضَعُ غَيرَها،
حتَّى خُيِّلَ إليَّ أنَّني غَيَّرتُ ماهيَةَ النَّصِّ كُليًّا !، وتِلكَ طَبيعةُ الأعْمالِ الإنْسانيَّةِ، تَفْتقِدُ إلَى الكَمالِ والرَّتابةِ؛ ولكنَّ حَسْبي أنَّ النَّصَّ الحاليّ، وَصلَ إلَى نِسبةٍ مِئويَّةٍ مَقْبولةً لدَرجةِ الرِّضا النَّفْسيّ.

فباللهِ أسْتعينُ وبهِ أُشيدُ.

رجُلٌ ابْتلعتْهُ السّياسةُ

في وسْطِ الصَّخَبِ وتعالِي الأصْواتِ لي بالرَّفْضِ، انْتهَى حُكْمي،
وصِرتُ سَجينًا بين الجُدْرانِ لا أرَى فيها أحدًا. حاسَّتَيّ السَّمعِ والإبْصارِ صارَا مُتعطِّلَتَين ليس لهُما وظيفةٌ بين الظّلامِ والهُدوءِ؛ فاعْتمدتُّ علَى حاسَّةِ اللمْسِ كالعُمْيانِ. تُرَى ما حلَّ بي؟!، وكيف ستصيرُ أيّامِي في هَذا الحبْسِ، وأنا كُنتُ الرَّئيسَ؟! .

نَهاري أصْبح ليلًا قاتِمًا، يقْتلُنِي بصمْتٍ باردٍ، واسْتُبدِلَتْ الهُتافاتُ بهُدوءٍ قاتِلٍ، وتحوَّلتْ حَياتِي المَحْفوفةُ بالمُقابَلاتِ والجَماهيرِ إلَى عُزْلةٍ مَقيتةٍ.
ولم يكُنْ بحَوْزتِي داخِلَ زِنْزانَتِي سِوَى صُنْدوقِ ذِكْرياتِي أُخْرِجُ مِنْه أسْرارِي وأسْترجِعُها، كَي أشْعُرَ بأنِّي مازِلتُ حيًّا.

وبدأْتُ بطُفولَتِي ونَشْأتِي في قرْيتِي الرَّيفيَّةِ حيثُ الماءُ والخُضْرةُ، والأحْلامُ الّتي كُنتُ أشْتهِي حينئذٍ. فلَم أحْلُمْ يومًا بأنْ أصيرَ رئيسًا، فلرُبَّما هذا كابُوسِي الَّذي لَم أحْلُمْ به، تُراهُ صارَ واقِعًا لهَدْمِ حَياتِي؟!، فكيفَ بِي عِندَما كُنتُ هادِئَ البالِ قريرَ العَيْنِ !.

وجَنحَتْ بِي ذِكْرياتِي لمَراحِلِ تعْليمِي الأسَاسِيّ، ودُخولِي عالَمَ الجامِعةِ حيثُ أفْواجٌ مِن النَّاسِ وأطْيافٌ وأجْناسٌ مُخْتلِفةٌ؛

فلَم تَجْرُفْنِي المُغْرياتُ عَن تحْقيقِ حُلْمِي وطُموحاتِي الدِّراسيَّةِ والمِهنيَّةِ حتَّى أنْهَيْتُ الدِّراساتِ العُلْيا، فطُموحي كانَ يُسابِقُ الزَّمنَ، ويُدانِي رِفْعةَ السّماءِ ساعتَها.

أمَّا الآن فطُموحِي أنْ يَفْتحَ السَّجانُ البابَ كَي يتسرَّبَ بعضُ الضَّوْءِ إلى زِنْزانَتِي ولو مُجرَّد ثَوانٍ حتَّى أشْعرُ بأنَّ عَيْنيَّ مازالتْ تعْملان؛

وهَكَذا أصْبحَ طُموحِي ضَئيلًا لا يتعدَّى فُتْحةَ إبْرةٍ .

لا يطْرأُ جَديدٌ في حَياتِي المُظْلِمة سِوَى صَوتِ قرْعِ قدَميّ سجَّانِي كُلَّ يَومٍ كَي يُدخِلَ لِي الطَّعامَ والشَّرابَ. حاولْتُ أنْ أتحدَّثَ إلَيْهِ مِرارًا ولكِن مَلامِحُهُ الصَّاخِبة، وعَيْناهُ اللَمِعتان تَرفُضان حتَّى مُجرَّدَ كلِماتٍ بَسيطةٍ.

ورغمَ مُحاوَلاتِي المُتكرِّرة ولكنَّهُ كانَ صارِمًا لا يَسْتجيبُ أو يَلينُ؛ وكانَ رَجُلًا طَويلَ القامةِ، ضَخْمَ الجُثّةِ، كأنَّهُ كُرةُ لَحْمٍ تَسيرُ علَى الأرْضِ، كُنتُ أنْتظِرُ بفارِغِ الصَّبرِ يَوميًّا تِلكَ اللَحْظةَ الَّتي يُفتحُ فيها البابَ فيتسرَّبُ مِنْهُ بَصيصُ ضَوءٍ، فصارَ هَذا هَدفِي اليَومِيّ وأمْنيَّتِي.

وبعْد قَفْلِ البابِ أُعاوِدُ لأسْترجِعَ شَريطَ ذِكْرياتِي مرَّةً ثانيَةً واقِفًا عِند مَحطَّاتٍ في حَياتِي، وأقوُمُ بالتّصْحيحَ والمُراجَعةَ، ولكنِّي كُنتُ أعاوِدُ مُسْرِعًا قائِلًا لنفْسي: ما جدْوَى النَّدمِ والتّصْحيحِ في وَضْعٍ خَلَى من المُراجَعةَ والمُحاسَبةَ.

فالزِّياراتُ عنِّي مَقْطُوعةٌ، فما عُدتُّ راغِبًا في الحَياةِ، حتَّى سجَّانِي رَفضَ التّكلُّمَ معِي رغمَ التّوسُّلاتِ. وبَقيَتْ لِي مُحاوَلةٌ أخِيرةٌ كَي أُرغِمَهُ وأسْتعْطِفَهُ للتّكلُّمِ معِي، فعِندَما جاءَني اسْتخدَمتُ شَتَّى الطُّرقِ فتوَسَّلتُ إليْهِ وبكَيتُ، فلَم أجِدْ أمامِي سِوَى قِطْعةٍ مِن اللَحْمِ مُتجمِّدةٍ لا شُعورٌ فيها ولا حَنِيَّةٌ. زِدتُّ مِن بُكائِي وتوَسُّلِي حتَّى أنَّني ركَعتُ مُقبِّلًا قَدمَيْهِ. فلَم ينْطِقْ ولَم يتجاوَبْ، وتَجاوَزَني ومَضَى مُغلِقًا بابَ زِنْزانَتِي. تارِكَني جُثّةً هامِدةً غارِقةً في الدُّموعِ.

وبعْد دَقائِقٍ فُتِحَ البابُ ثانيةً، نَظرتُ و عَيْناي تَترقْرقُ بالدُّموعِ، فوَجدتُّهُ مُمْسِكًا وَرقةً في يدَيْهِ مُشيراً أي أقْبلْ إليَّ خُذْها، فحَبوْتُ نحْوَهُ سَيراً خاطِفًا الوَرقةَ، فوجدتُّها رِسالةً مُدوَّنًا فيها باللَهْجةِ العاميَّةِ، وكانَ الخطُّ رَديئًا بحيثُ صارَتْ الرِّسالةُ شَفْرةً يُعجَزُ عَن فكِّ رُموزَها. رَجَوتُهُ أنْ يقْرأَها لِي، فلَم يَنطِقْ و لَم يرُدَّ جَوابًا .

فاجْتهدتُّ كَي أُحِلَّ شفْرتَها وأقْرأَها، وبعْد عَناءٍ توَصَّلتُ فيما نصَّهُ :

« سَيِّدي ألْتمِسُ مِنكَ العُذرَ فأنا لا أعْرِفُ مَن أنتَ، ولكِن يَبْدو أنَّكَ رَجلُ سِياسةٍ، وأنا هُنا سجَّانٌ مِن ثَلاثِين سَنةً، وقَد لاحظْتُ أنَّكَ تُريدُ التّكلُّمَ معِي، وألْححْتَ في الطّلبِ؛ لِذا أرَدتُّ أنْ أريحَ بالَكَ، وأرْحمَكَ مِن عذابِكَ، فكَتبْتُ لكَ هَذه الرِّسالةَ كَي أوضِّحَ لكَ :

« أنِّي أخْرسٌ لا أتَكلَّمُ أو أسْمعُ « .

وانْفَجرْتُ بعْدها بالضَّحكاتِ الهِسْتيريَّةِ الَّتي لَم تنْقطِعْ.

وتَعجَّبَ السّجَّانُ !، فهو لَم يكْتُبْ نِكاتًا بلْ رِسالةً إخْباريَّةً.

وأيْضًا لَم يَفْهمْ ضَحكاتِي، مِثْلما لَم يَفْهمْ توَسُّلاتِي.

وأَغْلقَ بابَ زِنْزانَتِي، وعَيْناهُ تُراقِبُ عَيْنَيّ، وأُسْدِلَ الظّلامُ،

وصَحِبَهُ قَرْعُ قَدمَيْهِ وكأنَّها مُوسيقَى (تِتْر) النِّهايةِ لآلامِي وآمالِي.

جَوْلةٌ صَباحيَّةٌ

« اسْتشِمُّوا نَسِيمَ الصّباحِ قبلَ أنْ تُلوِّثَهُ أنْفاسُ العُصاةِ « !.

مَقولةٌ مأْثورةٌ كانَ يُردِّدُها علَيْنا شَيخُ القرْيةِ بعدَ صلاةِ الفجْرِ عِندما يأْخذُنا في جَوْلةٍ صَغيرةٍ عَبرَ النّواحِي والشَّوارعِ، كانَ يُردِّدُ الأذْكارَ بصَوتٍ خافِتٍ ونحنُ كُنَّا وَراءَهُ، لا نسْمعُ صَوتًا ولا هَمْسًا غيرَهُ فقدْ واقَ المَوتُ الأصْغرُ (النَّوم) سُكَّانَ القرْيةِ فلا حَياةٌ تدُبُّ فِي الأرْجاءِ، فكُنَّا نَنْظرُ إلَى السَّماءِ فإذا بنُجومِها تَغيبُ، والهُدوءُ يَذوبُ مَرحًا فِي المَكانِ.
كُنَّا نسْعدُ بتِلكَ الجَوْلةِ الصَّباحيَّةِ ونطْلِقُ علَيْها الرِّحلةَ اليَوميَّةَ.
الآن علَى ما يبْدو أنْهَى الشَّيخُ ذِكْرَهُ، وظنَّا مِنهُ أنَّنا خَلفَهُ نُردِّدُ؛
والحَقُّ أنَّهُ مُخْطِئٌ فكانتْ تُلْهينا وتُخيفُنا الشَّوارِعُ، والمَناظِرُ المُظْلِمةُ.
وبدأَ ما يُكدِّرُ الرِّحْلةَ، بعْدما فَرغَ الشَّيخُ مِن ذِكْرِهِ بَدأَ انْشِغالُهُ بِنا.

ـ يا حسنُ: كَم وِرْدًا أتْمَمْتَ أمْسًا واللَيلةَ؟.
ـ عُذرًا يا مُعلِّمُ: انْتهيْتُ فَقطْ مِن جُزئَين تَبارك وعمَّ.
ـ أُبشِّرُكَ يا حسنُ: إذا اسْتمْرَرْتَ علَى هَذا الحالِ فإنَّ مُسْتَواكَ سوفَ يهْبِطُ ولَنْ تَقومَ لكَ قائِمةٌ، ولَنْ تَحْصُلَ علَى إجازَةٍ مِنِّي (إجازةٌ هي إذْنٌ للتِّلميذِ بالرِّوايةِ عَن الشَّيخِ، وتُشْبِهُ الشّهادةَ لإتْمامِ القُرآنِ).
ـ حاضِر يا مُعلِّمُ أعْتذِرُ لكَ.. ولَنْ أُكرِّرَها، وبصَوتٍ خافِتٍ (إنْ جِئْتَ إليكَ مرَّةً أخْرَى). هَكَذا يُعكِّرُ صفْوَ الجَولةِ بتلكَ النَّغزاتِ والتَّهكُّماتِ حتَّى كَرِهَ البعْضُ مِنَّا الجَوْلةَ الصَّباحيَّةَ.
الآن بَدأَ صَوتٌ يُطنْطِنُ حَولَنا فنَنْظرُ فإذا بأصْحابِ المَأْكولاتِ يُشمِّرونَ عَن سَواعِدِهِم لتحْضيرِ وفَتحِ المَحلَّاتِ (الفُول والطَّعميَّة).
ويَنْكشِحُ الهُدوءُ رُوَيدًا رُوَيدًا، فها هو صَوتُ الدُّيوكِ أعْلَى المَنازِلِ، تُخالِطُهُ تَغاريدُ الطُّيورِ؛ مُعْلِنةً صَباحَ يَومٍ جَديدٍ.
وسُرْعانَ ما يَتوقَّفُ شَيخُنا عِندَ أحدِ المَنازِلِ، ويُفتحُ شُبَّاكٌ فتَطْلعُ مِنهُ امْرأةٌ عَجوزٌ (أُجْزِمُ بأنَّها كانتْ رائِعةَ الجَمالِ في شَبابِها) فتُشيرُ إلَيْنا بإناءٍ فيه لَبنٌ، فنُسَلِّمُهُ لشَيخِنا فيُسْقِينا ويُوزِّعُ علَيْنا بعْضَ مِن تَمراتٍ قَدْ أخْرجَها مِن جِلْبابِهِ، بعْدما مَزجَ التّمرَ باللَبنِ.
كُنَّا نَفْرحُ كَثيرًا لا لأنَّنا حَصَلْنا علَى وَجْبةِ الصَّباحِ المجَّانيَّةِ ولكِن لأنَّ شَيخَنا ألْهَتْهُ مُهمَّةٌ غير التَّهكُّمِ علَيْنا وسُؤالِنا.
وعِندَما تَخْتلِطُ السَّماءُ بتلكَ الغُيومِ، وتُفْرِزُ لَونَها البُرْتُقاليّ عِندَما يتَسرَّبُ مِن خِلالِها شُعاعُ الشَّمْسِ، نَعْلمُ بأنَّ جَوْلتَنا انْتهَتْ هَذا اليَومَ ويَرجعُ كُلٌّ مِنَّا إلَي بَيْتِهِ، مُخلِّدًا إلَى فِراشِهِ، تارِكًا لجَسدِهِ الرَّاحةَ، ويَغُطُّ في نَومٍ عَميقٍ لا يُوقِظُهُ إلَّا آذانُ الظُّهرِ.

وبعْدُ كُلِّ هَذه السِّنين انْتفَتْ الذِّكْرياتُ ومَعالِمُ البُيوتِ وشوَارِعِها، وما بَقِيَ لَنا سِوَى هَذه المَقولةِ تَتَرَدَّدُ فِي آذاننا، فهلْ تِلكَ المَقولةُ حقًّا صَحيحةٌ؟. بعْد تأمُّلٍ أجِدُها غيرَ مُجْديةٍ، فكُلُّنا عُصاةٌ، ونحنُ الَّذين كُنَّا نُلوِّثُ النَّسيمَ والهَواءَ، فلا خَيرٌ فِينا إنْ ردَّدْناها واعْتقدْناها وظنَنَّا أنَّها تَنْطبِقُ علَى آخَرين.

حتَّى تِلكَ المَقولةُ تَلاشَتْ، وبَقِيَتْ هي الأخْرَى ذِكْرَى لَنا.

الأَراجيفُ

إذا لَمْ تَمِلْ إلَى حقٍّ أوْ باطِلٍ فأنْتَ إنْسانٌ فاضِلٌ. مَنْطِقٌ تنْطِقُ بِهِ الأَلْسُنُ والجَوارِحُ، فإنْ لَم تُطاوِلْكَ النَّاسُ بألْسِنَتِها فأنْتَ مَحْظُوظٌ صالِحٌ، هَذا مُعْتقَدُ وفِكْرُ العَجوزِ الَّذي كانَ يَجْلِسُ بجِوارِي في عَرَبَةِ المُواصَلاتِ، فلقَدْ قضَى قَيْلولَتَهُ البَسيطَةَ رَيثَما يَكْتمِلُ عددَ رُكّابِ السَّيارَةِ، ودَخلْتُ فَملأْتُ فَراغًا مَكانيًّا وفَراغًا نَفْسيًّا لهَذا العَجورِ. فَما أنْ رآنِي حتَّى تَهلَّلَتْ أساريرُ وَجْهِهِ فَرحًا بجُلوسِي مَعهُ، ولَم أجِدْ حِيلَةً أمامَ ابْتسامَتِهِ إلَّا إلْقاءَ السَّلامَ، وابْتسامةً أحْسنَ مِنْها، وما أنِ الْتَقَطَها حتَّى انْفَجرَ بالكَلامِ؛ وتأَنَّفَ مِن الحَياةِ وسُكَّانِها. قُلْتُ في نَفْسي: بدايَةٌ مُشْرقَةٌ!، ورَجُلٌ مُسَلٍّ يا ليْتَني، لَم أُلقِ لَهُ بالًا في بادِئِ الأمْرِ.

وراحَ يَشْرعُ في سَرْدِ قِصَصٍ وحِكاياتٍ؛ وأنَّ النَّاسَ يَهْمِزُونَهُ ويَلمِزُونَهُ، وما أخَذَ مِنْهُم إلَّا أنْ تَطاوَلتْهُ الأَلْسُنُ ونَبَذَتْهُ.

قُلتُ لَهُ: (مُهَدِّئًا) لا عَلَيْكَ هَكذا الدُّنْيا تَفْعلُ بأهْلِها، فالشُّرَفاءُ أمْثالَكَ لا يَسْلَمون .

قالَ (مُسْتغْرِبًا): وما أدْراكَ أنِّي شَريفٌ؟!.

قُلتُ لَهُ (مُتَمَلِّقًا): ما تَسْرُدُهُ يَنُصُّ علَى أنَّكَ مُخْلِصٌ أَمينٌ، وطَيِّبٌ شَريفٌ؛ لأنَّكَ لَو أخَذْتَ بِثأْرِكَ ما تَجرَّعْتَ هَمَّ التَّنْفيسِ عَن أوْجاعِكَ. (تَعَجَّبَ) وقالَ: مِن أينَ تأْتي بالحِكمِ؟.

قُلتُ: لا تَشْغلْ بالًا أيُّها العَمُّ العَجوزُ، أرْبُطْ حِزامَكَ؛ فَسوفَ تُقْلِعُ السَّيارةُ لسَفرِنا.

ـــــ حِزامي!

(وضَحكَ ضَحْكَةً عاليَةً بانَتْ مِنها أسْنانُهُ المُتآكِلَةُ، وَرُدَّتْ إليْهِ سِنْين مِن عُمْرِهِ، طَواها الحُزنُ والكَمَدُ): أتَظُنُّها طائرةً يا وَلدي!.

وانْطَلَقَتْ السَّيَّارَةُ، فقَدْ امْتَلأتْ بِرُكّابِها. ودَدتُّ حينَها لَو كُنتُ جالِسًا بجِوارِ النَّافِذَةِ، أُراقِبُ الطَّريقَ والمُشاةِ والعَرَباتِ، وأنْسَى مَن بداخِلِ السَّيَّارةِ، وقَسَماتِ ذَلك العَجوزِ المُتحَجِّرَةَ، الَّتي ما إنْ غابَتْ عَنها الابْتِسامَةُ حتَّى تَحوَّلتْ إلَى بِيادَةٍ.

فتَجَرَّعْتُ نَصيبًا مِن صَبْرٍ، فَطَريقُنا يَسْتغْرِقُ ساعَةً ونِصْفًا. رُبَّما يُسَلِّينا هَذا العَجوزُ بحِكايَةٍ مِن عِندِهِ فيُنْسِينا، وبالفِعْلِ شَرعَ في سَرْدِ حِكاياتٍ، وبَعْدُ كُلِّ حِكايةٍ يَسْتخْلِصُ مِنها الحِكَمَ والآياتِ.

وممَّا قالَ: كُنتُ ذاتَ مَرَّةٍ مُوظَّفًا في مَصْلحَةٍ حُكُوميَّةٍ، أعْمَلُ بالمَحْفوظاتِ؛ الكُلُّ يَشْهدُ بنَزاهَةِ وحُسْنِ سُلوكِي واحْترامِي. لا أُخالِطُ أحدًا خَشْيةَ أنْ يَتحدَّثَ عَنِّي ويُلْحِقُني العَطبُ. ولكنَّ هَذا مُحالٌ، فأنا مُوظَّفٌ يَهُبُّ إليَّ السَّائلُ والطَّالِبُ. وفي يَومٍ طَلَبَني أَحَدُهُم، يُريدُ وَرقَةً مِن المَحْفوظاتِ بِدُونِ عِلْمِ أَحدٍ ودُونِ إذنٍ مِن الإدارَةِ!، يُريدُها مَكيدَةً لأحَدِ المُوظَّفينَ. فلَم أرْضَ وطَلَبْتُ مِنْهُ الانْصِرافَ بهُدوءٍ.

فانْزعَجَ وفي ثَوانٍ تَحوَّلَ عليَّ واحْتِرامُهُ تَبدَّلَ، وثارَ يُشنِّعُ ويُطاوِلُني بألْفاظٍ نابيَةٍ، وخَرجَ كُلَّ مَن يُصادِفُهُ يَسْرُدُ لهُ بعْضًا مِن أراجيفِهِ الَّتي اخْتلقَها للتَّوِّ، فيَنْقِلُها للمُوظَّفين؛ البعْضُ مِنْهُم يَقْبلُها، وآخَرٌ يُعلِّقُها، وجُزْءٌ يُريدُها كتَسْليَةٍ، فيَزيدُ عَليْها ويُؤَكِّدُها. حتَّى الَّذين كانوا بالأمْسِ يحْترِمونَنِي صارُوا يَهْمِزونَنِي بالحَكِيّ.

ولا غَرابةٌ النَّاسُ يُحبُّون الأخْبارَ السَّيِّئةَ، لأنَّها غَيرُ مَأْلوفةٍ فيَتناقَلوها؛ رَغْبةً في كَسْرِ مَللِ الحَياةِ أو لتَقْليلِ شَأْنٍ وانْتِقامٍ.

فتَرَكْتُ المَصْلحةَ كَي أحْرِمَهُم مِن هَذهِ المُتْعةِ؛ فما خِفْتُ مِنهُ نِلْتُهُ!، كُلُّ هَذا لِماذا؟. لأنِّي ناجِحٌ. أيُّ نَجاحٍ لا يَسْلَمُ مِن جُحودٍ، وتَنْقِلُ الألْسِنةُ عَنْكَ ما لا تَشْتهِي.

ثُمَّ انْتهَى العَجوزُ مِن حِكايتِهِ، فنَظرْتُ إليْهِ، فإذا بعَيْنَيْهِ تَترَقْرقان بدُموعٍ، فمَدَدتُّ يَدِي بمِنْديلٍ.

فرَدَّ يَدِي قائِلًا: إنْ لَم تَزْرفْ عَيْناي فأخْشَى أنْ يَفْتأَ قَلْبِي. اتْرُكْها تَنْزِلُ ففِي نُزُولِها رَحْمةٌ، وفِي حَبْسِها مَضرَّةٌ.

تَعجَّبْتُ مِن هَذا العَجوزِ وفَصاحَتِهِ وحِكْمتِهِ وقُوَّةِ سَرْدِهِ. فلَم أمِلّ مِنْهُ أو أُحِسّ بمَن حَوْلِي حِينَ سَرَدَ، فقُلْتُ لهُ: قدْ قَرُبْنا مِن النُّزولِ فأين تَنْزِلُ؟، وكيفَ ألْقاكَ بعدَ اليَوْمِ؟.

فابْتسمَ قائِلًا: أنا لَن أنْزِلَ، فهَذا مَنْزِلِي، وإنْ تُريدَ مُلاقاتِي فهَذا مَكانِي.

ــ تَعجَّبْتُ: كيفَ يا عَمِّي؟.

فقالَ : السَّائِقُ هَذا ابْنِي؛ بعْدَما خَرجْتُ مِن المَصْلحةِ جَلبْتُ لهُ هَذهِ العَربةَ لتُعينَنا علَى العَيْشِ ونَقْتاتَ.

وأُرافِقُهُ يَوميًّا كَي أكْسرَ المَلَلَ، وأجِدَ مَن أُفْضِي لهُ مِن حَديثٍ وشَكْوَى، وأيْضًا كَي أُحَصِّلَ مِن الرَّاكِبين الأُجْرةَ.

فابْتسَمْتُ، وأخْرجْتُ نُقودًا لهُ.
فردَّ يَدِي، قائِلًا: لا يا وَلَدِي، أُعْفيكَ مِن أُجْرتِكَ اليَومَ، فلقَدْ دَفعْتَها جَرَّاءَ سَماعِكَ لِي.
فقُلْتُ (مُبْتسِمًا ومازِحًا): أوَدُّ ألَّا أدْفعَ الأُجْرةَ غدًا.
(فابْتسَمَ) وقالَ: بَل سَتَدْفعُها يا بُنيّ. فلقَد انْتهَتْ حِكاياتِي، كَما انْتهَى مِشْوارُكَ، انْزِلْ رافَقَتْكَ السَّلامَةُ.
ونَزِلْتُ وأنا مُنْدهِشًا مِن فَرْطِ ما حَدَثَ مِن هَذا العَجوزِ؛ فلقَد حَدَّثَنِي عَن مَخاوِفِهِ فلَم تُغْنِ إلَّا إتْيانَهُ رُغْمًا عَنْهُ!.
فلِما نَضَعُ أنْفُسَنا داخِلَ مُكعَّباتٍ، ونَخْشَى مِن ألْسِنةِ النَّاسِ، وكَلامُهُم سَيُطاوِلُكَ شِئْتَ أمْ أبَيْتَ؟!. فاعْهَدْ لنَفْسِكَ واسْتمِرّ؛ فالثَّمَرةُ الجَيّدَةُ والخَبيثَةُ تَنالُ مِن القَذْفِ وكِلاهُما يَسْقطُ؛ وَشَتَّانَ بينَ سُقُوطٍ فِي الفَمِّ، وَسُقُوطٍ فِي الأرْضِ.

فَتاةُ المُوَاصَلاتِ

بيْنما كُنتُ أصْعدُ الدَّرجَ بمحَطَّةِ المِترو سَألنِي شابٌّ بَسيطُ الهِنْدامِ، قَليلُ الحِيلةِ (إنْ شِئْتَ قُلْ إنْسانٌ بطَبيعتِهِ الرِّيفيَّةِ لَم يخْتلِطْ بالمُدنِ) .

قالَ لي : أين مَحطَّةِ الشُّهداءِ؟.
قُلتُ لهُ : (مُسْتغربًا) وهلْ عِندنا شُهداءٌ؟.
ابْتسمَ، ولَم يردَّ جَوابًا !.
(شَردَ ذهْنِي حِينهَا قُلتُ إنَّ هَذا ما يَلْحظُهُ الرُّكَّابُ والمِصْريُّون البُسَطاءُ مِن تغْييرٍ بعد الثَّوْرةِ المِصريَّةِ ويكْمنُ في تغْييرِ اسْمُ المَحطَّةِ، مِن مَحطَّةِ مُبارك إلَى محطَّةِ الشُّهداءِ !).
ـ فقُلتُ لهُ: سوفَ أدلُّكَ عَليْها تَعالَى معي.

واسْتأنفْنا الصُّعودَ ودَخلْنا العَربةَ وبعد عِدَّةِ مَحطَّاتٍ وكالعادةِ ازْدَحمَتْ العَربةُ بأطْيافٍ مِن النَّاسِ ومِن بينِهم فَتاةُ المُوَاصَلاتِ:
(تِلكَ الفَتاةُ السَّافِرَةُ الّتي أفْلسَتْ مِن جَمالِها، فراحَتْ تُحسِّنُ هِنْدامَها، وتكْوِي شعْرَها) .
ولَم تكُنْ جَميلةً كَي تجْذِبَ الانْتِباهَ ولكنَّ طَريقةُ مَلْبسِها تكْفِي بِهَذا.
وكالعادةِ هبَّ شابٌّ مِن الرَّاكِبين كَي يفْسحَ لَها مَكانًا (رُبَّما أقْرأُ هَذا المَوقِفَ علَى أنَّه مَوقِفٌ حَضارِيّ أو تَديُّنيّ ولكن قِراءاتُ الآخَرين تخْتلِفُ بعضَ الشَّيءِ).
أصابَ الحُضُورَ ذُهُولٌ مُؤقَّتٌ مِن جَرَّاءِ هَذا المَوقِفِ، وصاحِبُنا القُرويّ في عالمٍ آخرٍ مِن الشُّرودِ، مُقلِّبًا أوْراقَ مُصْحفِهِ؛ فهو لَم يَعْتدْ تِلكَ المَواقِفَ، ولَم يخْتلِطْ بتِلكَ الظُّروفِ.
جَلسَتْ الفَتاةُ مُعْتدِلةً في جِلْستِها برفْقتِها شابٌّ (رَقيقُ المَلامِحِ كأنَّهُ أخْتُها). رَمقَتْها الأعْينُ ساخِرةً مُتعجِّبةً إلَّا عَينًا واحِدةً نظرَتْ إليْها بفَظاظةٍ تكادُ تقْتلُها؛ تِلكَ العَينُ عَينُ رَجُلٍ جاوزَ مُنْتصفَ الثَّلاثين مِن عُمْرِهِ، عيْناهُ دائِرتين وعَضلاتُ وَجْهِهِ رافِضةَ الانْسِجامَ والاسْتجابةَ للحَياةِ.
قُلْتُ مُحدِّثًا نفْسي: تِلكَ الفِعْلةُ البَريئةُ مِن هَذا الشَّابِّ الطَّيبِ؛ صنعَتْ مِن هَذا الرَّجُلِ أنْبوبةً مُلْتهِبةً قابلَةً للاشْتعالِ.
أرَدتُّ أنْ أسْترَ مِن شِدَّةِ التوتُّرِ الَّذي يَحومُ في المَكانِ،
فصَنعتُ لنفْسي قالِبًا مِن مُزْحةٍ مُسْتغلًّا مَقولةَ الفَتاةِ عِندَما قالتْ:
«ماذا سَيفْعلُ هَذا الشَّابُّ؟ الَّذي أوْسعَ لي، وهلْ سوفَ يجدُ مَكانًا؟ «.
فردَّ عليْها صاحِبُها قائلًا :
(غيرَ مُبالٍ) سوفَ يجدُ لهُ مَكانًا فلا تُلقِي لهُ بالًا.
قفَزْتُ في الحِوارِ قائلًا: (علَى الفَوْرِ)، أنَّها الشَّهامةُ المِصْريَّةُ يا أخي !.
(لَم يرُدَّ جَوابًا إلَّا ابْتسامةً كانتْ كَفيلةً كَي تجْعلَني أُكْمِلُ حَديثِي) .

فاسْتأنفْتُ قائِلًا: تِلكَ الشَّهامةُ سوفَ تقْتلُنا يَومًا.
(اسْتمرَّ في ابْتسامتِهِ، وإماءاتُهُ الجَسديَّةُ كانتْ راضيةً).
تابعْتُ قائِلًا: أتَدْري في أوْقاتٍ كَثيرةٍ أتَمنَّى أنْ أصيرَ أُنْثَى كَي أحْظَى ببَعضِ الامْتيازاتِ الّتي تجْعلُ الشَّبابُ يهبُّون كَي يفْسحوا لي مَكانًا.
حِينَها أحسَسْتُ بنَظراتِ تِلكَ الفتاةِ، عَيْنُها تلْمَحُ تَصرُّفاتِي، وتُراقبُ كَلماتِي؛ فلَم أرْعَ لَها أيَّ انْتباهٍ؛ ونَظرْتُ إلَى صاحِبِنا القُرويّ مُشيرًا إلَى لَوْحةِ الإرْشاداتِ، أنَّ مَحطَّتَكَ علَى بُعدِ عِدَّةِ مَحطَّاتٍ، ووَدَّعتُهُ ونَزلتُ في مَحطَّةِ جامِعتِي، بعْدما أخْففْتُ مِن وَطْأَةِ التوتُّرِ، ومِن شِدَّةِ المَوقِفِ.
وانْطلقَتْ عَرباتُ المِتْرو تقْطعُ المَسافاتِ، آخِذةً فَتاةَ المُواصلاتِ.

نحْو الطَّريقِ السَّريعِ

لَم أكُنْ أعْلمُ أنَّ السَّيرَ نحْوَ طَريقٍ يُعْتادُ المَشْيُ فيهِ نِهايتُهُ سَتؤُولُ إلَى هَذا، ولكنَّهُ القَدرُ عِندَما يَرْسمُ آجالَنا.

ولستُ أكْتبُ مُقدِّمةً مُرْعِبةً لنِهايةٍ مأْسويَّةٍ بلْ مُقدِّمةً مُشْرِقةً ولكنْ يعْتليها بعضُ الحَزَنِ مِن جرَّاءِ سَخطِ أفْعالِ العِبادِ.
اسْتقلَّيْنا مَرْكَبةً علَى ناصيةِ الشَّارعِ العُمومِيّ، وقُمْنا بدَفْعِ ثَمنِ الأُجْرةِ الَّتي تُقدَّرُ بخَمْسِ جُنيْهاتٍ مِصْريَّةٍ؛ تَجاذبْنا بعضَ أطْرافِ الحَديثِ معَ السَّائقِ وبعضِ الرَّاكِبين، وهي عادةٌ يَفْعلُها المُسافِرون خاصَّةً بِمصرَ. وفي مُنْتصَفِ الطَّريقِ توقَّفتْ السَّيارةُ رَيْثما يَعودُ السَّائقُ بعْدما أخْبرَنا أنَّهُ يُريحُ سيَّارتَهُ مِن التَّعبِ الَّذي أصابَها في هَذا الحَرِّ، ويُفْترضُ أنَّنا ما قَطعْنا مَسافةً تُذْكَرُ!، ولكنْ دعَّمَ كلامَهُ بأنَّه يُريدُ أيضًا جلْبَ بعضِ المُؤَنِ مِن طَعامٍ وماءٍ وخِلَافِهِ.

البَعضُ مِنَّا رفضَ ولكنْ ما حِيلَتُنا أمامَ سائِقٍ أخذَ الأُجْرةَ، ولا بَديلٌ لدَيْنا إلَّا الرُّضوخَ إلَى مَطالبِهِ.

وتأخَّرَ كَثيرًا لا علَى حِسابِ السَّاعةِ الزَّمنيَّةِ بلْ علَى حِسابِ ساعتِنا النَّفْسيَّةِ حتَّى ظَهرتْ مَلامِحُنا الحَزينةُ وتَعالَتْ أصْواتُنا بالشَّكْوَى ولكنْ ما مِن مُجيبٍ!؛ الكُلُّ يَشْكو ولا أحدٌ ينْجُو مِن هَذا الضِّيقِ والسَّأمِ.

وظَهرَ سائِقُنا المُبجَّلُ بثِيابٍ مُلطَّخَةٍ بدِماءٍ، وكَأنَّ المَطرَ هَطَلَ مِن السَّماءِ فأصابَهُ بالبَلَلِ لا بالماءِ بلْ بالدِّماءِ. طلبَ مِنَّا النُّزولَ الواحِدُ تِلْوَ الآخَرِ ونحْنُ في دَهْشةٍ مِن جرَّاءِ ما يحْدُثُ مَعَنا. حَمدتُّ ربِّي كَثيرًا فلَم يكُنْ بيْننا طِفْلٌ أو امْرأةٌ، فقَد آلَتْ الظُّروفُ وأشْرفَتْ علَى نِهايتِها.

وقَفزَتْ كُلُّ المَساوِئِ حِينَها في مُخيِّلتِنا، ورَسمْنا النِّهايةَ بأنْفُسِنا إمَّا مَوتًا أو قَتْلًا؛ موتٌ مِن خَوفٍ أو قتْلٌ بسِكِّينٍ علَى يَديّ سائِقِنا.

ورغمَ كَثْرتِنا العَدديَّةِ إلَّا أنَّ الخَوفَ عَطَّلَ مَلكاتِنا، وَسِرْنا خلفَهُ قَطيعًا لا شأْنٌ لَنا أو إرادةٌ. تُرَى ما المَصيرُ الَّذي ينْتظِرُنا؟. وأنا حِينَها كُنتُ باردَ الأعْصابِ غيرَ مُبالي بما يحْدُثُ كَثيرًا، فلرُبَّما هَذا أفْضلُ مِن المَلَلِ اليَوميّ.

لاحَظَني سائِقُنا فسَألَني؛

فقُلتُ لهُ: أأنْتَ مُشخِّصُ حالاتٍ أم قاتِلٌ وخاطِفُ الأحْرارِ ومُروِّعُ الآمِنين؟! .

(اغْتاظَ منِّي مُشهِّرًا سِلاحَهُ في وَجْهي).

ـ فقُلتُ :

أهَذا ما تُريدُهُ أنْ أرْتعِبَ مِنكَ وأخافَ كَي تُثْبتَ أنَّكَ رَجلٌ بافْتِعالٍ.

ـ ضَحِكَ:

(ضَحِكةً عاليةً تَفوحُ مِنها رائِحةُ السُّخْريةِ بصَوتٍ كرَعدِ السَّماءِ).

أعْقَبتُ قائِلًا:

لأنَّكَ ببَساطةٍ مُمثِّلٌ فاشِلٌ لا تُتْقِنُ عَملَكَ في الخَطْفِ، وأجْبنُ مِن أنْ تقْتلَ،

مُتْعتُكَ الوَحيدةُ أنْ تَرَى الخَوفَ والرُّعْبَ يخْتلِعُ أنْفُسَنا لا أكْثرُ، كَي تُثْبتَ أنَّكَ ذو أهَمِّيةٍ والحَقُّ أنَّكَ أحَطُّ مِن سِحْليَّةٍ. أتظُنُّ أنَّ تِلكَ الدِّماءَ الَّتي تُزيِّنُ جِلْبابَكَ مَصْدرُ خَوفٍ أو أنَّ نَظراتِكَ المُتوحِّشةَ تُؤهِّلُكَ كَي تَكُونَ مُجْرِمَ حَرْبٍ ؟!.

أحْبَطتُّ مُخطَّطَكَ أعْلمُ وحَرمْتُكَ مِن مُتْعتِكَ أفْهمُ ولكنْ لكُلٍّ مِنَّا أسْلحَتُهُ. وفي خَطْفةٍ مِن البَصرِ ركِبَ سَيّارتَهُ بدونِ سابِقِ إنْذارٍ مُسْرِعًا في قِيادَتِهِ حتَّى هوَى مِن أعْلَى التَّلِّ في ذُهولٍ مِن الحاضِرين مُسطِّرًا لِنهايتِهِ؛ فما عادَ لَديْهِ مِن معْنَى ليَعيشَ، وما عادَ لَديْهِ مِن شأْنٍ لِيسْتمرَّ.

فما أصْعبُ تِلكَ اللَحظاتِ الَّتي ترَى فيها قاتِلًا يَموتُ؛ فما تَدْرِي أتسْعدُ أم تحْزنُ؟. بَحثْنا في سَيّارتِهِ عَن أوْراقٍ لكَشْفِ هويَّتِهِ، فوَجدتُّ وَرقةً مَكْتوبًا عَليْها « يا لَيْلَى يا ابْنَتِي لنْ أكُونَ بلا نَفْعٍ بعد اليَومِ «.

وكأنَّ عَملَهُ البُطوليّ كانَ بِدايةً كَي يحْظَى بهِ لنيْلِ ذاتِيَّةٍ وتحْقيقِ رِفْعةٍ ومَكانيَّةٍ. وكانَ عَزائي الوَحيدُ أنَّني حَرمْتُ البَشريَّةَ مِن مُجْرِمٍ كانَ يسْلُكُ بِدايةَ طَريقِهِ فلَو نَجحَ هَذهِ المرَّةَ لعاودَها كَرَّةً أخْرَى.

فالبَعضُ مِنَّا مُؤهَّلٌ لكَي يكُونَ مُجْرِمًا، إذا سَنحَتْ لهُ الفُرْصةُ أو وافَقتْهُ الظُّروفُ؛ وقَد يكُونُ لهُ دَوافِعٌ نحْنُ مَن يصْنعُها إمَّا بدَفْعٍ أو بتَحْريضٍ أو بعَدمِ مُواجَهةٍ.

آهٍ لو كانتْ تحمِلُ هاتفًا

قَضتْ تِلكَ الطِّفلةُ البَرئيةُ ثلاثةَ أيامٍ، خارجَ منزلها تائهةً عَن والديْها، تتقاذفُها الشَّوارعُ والحاراتُ، لا تعلمُ مَلجأً، لا و لا مَلاذًا، لا تملِكُ رُجوعًا أو ترفعُ صوتَها بالنّداءاتِ، في وسطِ زحامٍ يَمُوجُ تكدّسًا بلا نِهاياتٍ. فلا تَمْلكُ إلّا كَسرَ وِحدتِها عِندَ كُلِّ تَجمُّعٍ مِن النَّاسِ، فيُعجبون ببَريقِها الفتّانِ، ثُمَّ ما يأْنفُ أنْ يَترُكُوها لانْشِغالِهم؛ فهي بلا أوراقِ هُويةٍ، لا ولا اسْتدلالاتٍ. فلقَد فقدَتْ والديْها عِند سُلّمِ مَحطَّةِ (المترو) بوَسطِ العاصِمةِ؛ حيثُ فرَّقَهُم الزّحامُ عِند صُعودِهِم الدّرجِ، وفَلتتْ يَداها مِنهُما عِند التّدافُعِ للخُروجِ. نظرَ الوالِدان لبعْضِهما بجُنونٍ، يَتلاوَمون ويَتقاذَفون بالمَسْئوليَّةِ، لا يعْبأون بالنّاظِرين إليْهِم، فلقدْ أحْرقَهُم ما يَلحِقُ بابْنتِهِم الَّتي جاوَزتْ السادِسةَ مِن عُمرِها، فلقَدْ نَزلتْ معَهُم تشْتري بعضَ الأَلْبِسةِ والحَلْوَى لحَفلةِ مِيلادِها، حيثُ تُقامُ الحَفلةُ عَشيَّةَ الليلةِ وفي انْتظارِها الأهْلُ والأحْبابُ كَي يُشارِكوا تِلكَ الأميرةَ فَرحتَها،

وينْثروا البَركاتِ. ولكنْ هَيْهات!؛ فتِلكَ الفَتاةُ ذاتَ الضَّفائرِ المُتشابِكةِ، بأشْرتَطِها المُتلوِّنةِ، وفُسْتانِها المُزخْرفِ بالأزْرقِ و الأبْيضِ، نالتْ مِنها الأتْربةُ، وبَلعَها الزّحامُ، وقذَفتْها الأرْجُلُ علَى غيرِ جِهةٍ تُهدَى، أو مَكانٍ تُرعَى. فوَشَّحَها السّوادُ الَّذي امْتلأتْ به الشّوارعُ، مِن عَوادِمِ السّيّاراتِ، كَذلكَ الجُوعُ فتكَ بِها فأثْقلَ قَدمَيْها، ورافقَهُ العَطَشُ فنالَ مِنها وأقْعدَها. ولم يَتأنَّ الحَرُّ لَحْظةً عَنْها فألْهبَها، كلٌّ تجمَّعَ و هَجمَ عليْها بلا رَحْمةٍ أو شَفقةٍ، غيرُ مُبالين بنَضْرتِها البَيضاءِ، الَّتي تَعْكسُ النَّقاءَ، أو بطِيبتِها الَّتي تُمثِّلُ الصّفاءَ، حتَّى عَيْناها الخَضْروان تَحوَّلا إلَى صَفْروين، مِن شِدَّةِ لَهيبِ الأرْصِفةِ، وأصْبحتْ شفَتاها الحَمْروان شاحِبتَين!؛ فجَسدُها الضَّعيفُ لا يقْوَى علَى التَّحمُّلِ؛ في ظِلِّ مَعْركةٍ غيرِ تَكافُؤيَّةٍ. وتَحوَّلَ عيدُ مِيلادِها إلَى سِجْنٍ تُعْلنُ فيهِ العُقوباتُ بلا هَوادةٍ أو حِساباتٍ. وأبوها وأمُّها كطائرَيْن بلَّلهُما العَرقُ في ازْدحامٍ صارخٍ؛ فلا يَعْرفان كيفَ يتَصرَّفان فابْنتُهُما غيرُ مَعْلومةِ المَلامِحِ للمارَّةِ كَي يتَعارَفوا عليْها. ومَن يَسْألان عَنها ومَن يَهْتمُّ في وَسطِ زَحفٍ قادِمٍ وذاهِبٍ كلٌّ إلَى مَصالحِهِ وأشْغالِهِ. ومرَّتْ عليْهم الليلةُ دونَ جَدْوَى وأيُّ جَدْوَى! يَحْصُلون عليْها وسطَ مَكانٍ يَموجُ فيها أُناسٌ ويأْتون غيرَ مُسْتقرِّين، وفَتاةٌ لا تَمْلكُ أدْنَى فِكْرةٍ أين هي؟ ولا رَقمٌ تَتَّصلُ به ولا تَأْوَى؟. ومَرَّتْ الليلةُ الثانيةُ ولم تكُنْ أحسنَ حالًا مِن سابِقتِها، فاغْتمَّ الأهْلُ وباتَ الأمْرُ غيرَ عاديّ، فنَزلوا عَن بَكْرةِ أبيهِم، يَبْحثون كجَرادٍ مُنْتشرٍ في الأرْجاءِ، فأبْلغوا الشُّرطةَ عَن الحالةِ وسَجَّلوا أوْصافَها، وقامتْ بدَورِها خيرَ قِيامٍ؟ ولكنْ دونَ جَدْوَى هي الأخْرَى. والوالِدان أُرْهِقا نَفسيًّا وجُسْمانيًّا فلم يُطْعما شَيئًا ولم يَشْربا هَمًّا وكَمدًا، مِثلَ ابْنتِهِم الَّتي أنْهكَها التّعبُ حتَّى بلَغتْ مَبْلغًا عَظيمًا، وانْحدَرتْ في زُقاقٍ جانبيّ، تَسْرحُ فيه وتَمْرحُ القِطَطُ المُتشرِّدةُ، تُبعْثِرُ أكْياسَ القُمامةِ بَحثًا عَن رِزْقِها. فُوجِئُوا بدخُولِها عليْهِم، فنَظروا إليْها بتَخوُّفٍ وما لَبِثتْ أنْ سَقطَتْ أرْضًا

مُغْمًى عليْها فجاءُوا إليْها يسْتشِمُّوها ويلْعَقوها، فما رَغِبوا فيها فتَركُوها، وراحُوا يسْتكْمِلوا عَملَهُم، كَما اسْتكْملَ الأهْلُ والشُّرْطةُ البَحْثَ ومَسْحَ المَكانِ والمَناطِقِ المُجاورةِ والأزِقَّةِ وحاراتِها. حتَّى وَجدَها عَمُّها، مُرْتميةً علَى الأرْضِ بجِوارِ أكْياسِ القُمامةِ، يَحومُ فَوقَها الذُّبابُ، ومَلابِسُها مُتَّسِخةً تَحوَّلتْ مِن ألْوانِها اللامِعةِ إلَى سَوادٍ، وأضْحَى وَجْهُها المَلائِكِي قِطْعةً مِن قَطِرانٍ. أدْهَشَهُ ما رَأَى، وذَرَفتْ عَيْناهُ، وفَطرَ قَلبُهُ . أدْخلَ يَدَهُ في جَيْبِهِ يَتلمَّسُ هاتِفَهُ، ويَداهُ مُرْتعِشتان، يتَّصِلُ بأبِيها ويُحدِّدُ مَكانِها. وما مَرَّ إلَّا قَليلَ مِن وَقتٍ، حتَّى جاءُوا جَميعًا تَقْطرُ أعْينُهُم الدَّمْعَ، ووُجُوهُهُم القَطْرَ؛ يلْقون علَى طِفْلتِهِم النَّظراتِ الأخيرةَ، فقَدْ وُشِّحتْ كقِطْعةِ قُمامةٍ مُلقاةٍ. انْهارُوا باكِين في مَشْهدٍ احْتفاليّ مَقيتٍ. وجاءَتْ سيَّارةُ الإسْعافِ، ونَزلَ رِجالُها يَشقُّون الصُّفوفَ، حامِلين جَسدًا كطَيْفِ زَهْرةٍ، جَلبَهُ النَّسيمُ، فأوْقعَهُ في بِرْكةٍ مُتَّسِخةٍ في ذُهولٍ مِن الحاضِرين، لا يُسمَعُ مِنهُم غيرَ بُكاءٍ بصَوتٍ مَكْتومٍ، تَتخلَّلَهُ العَباراتُ. حتَّى مضتْ عَربةُ الإسْعافِ بصَوْتِها، تَسْطُرُ النِّهايةَ، وتُنْهِي الاحْتفاليَّةَ؛ بعِيدِ مِيلادٍ أُقيمَ بشَكْلٍ غيرِ تقْليديّ.
وهَمسَ عَمُّها لأبِيها بحَسْرةٍ قائِلًا: لِماذا لم تُعْطِها هاتِفًا جوَّالًا كَي تَسْتطيعَ أنْ تَصِلَ إليْها بسُهولةٍ. ـــ فنَظرَ إليهِ بحُزنٍ، وقالَ مُتلعْثِمًا: آآ ه ن، لو ككك اا نت تحمملوو هههاتتف نن.

لَيلةٌ في الشّارِعِ

علَى امْتدادِ ناصيَةِ هَذا الشَّارعِ الَّذي أسْكنُ فيهِ اتَّصلَ بي أحدُ الجيرانِ في مُنْتصَفِ اللَيلِ كَي أُسْديَ لهُ خِدْمةً؛ حَسبْتُهُ يُريدُ قَرْضَ بعضَ المالِ أو أنْ أتَوسَّطَ لهُ عِند أحدِهِم، هَذا تقْريبًا ما دارَ في ذِهْني حِينَها.

خَرجتُ مُسْرِعًا مُلبِّيًا نِداءَهُ غيرَ مُتوقِّعٍ أنَّ هَذه اللَيلةَ سَتكونُ مُميَّزةً في سِجلِّ حَياتي، وقِصَّةً في ذِكْرياتي مَلئيةً بالمُفاجآتِ والإثارةِ و التَّشْويقِ.

حينَ خُروجي اكْتشَفتُ للتَّوِّ أنَّ هُناكَ مُشْكِلةً والمُفْترضُ أنا مَن يَقومُ بِحلِّها؛ وهي أنَّ أحدَ السُّكانِ (واسْمُهُ شَوقي) جَلبَ فَتاةً كَي يَقْضي مَعها اللَيلةَ، ناسيًا أنَّه في مِنْطقةٍ شَعبيَّةٍ؛ ما يَحدُثُ فيها علَى مَرأَى ومَسْمعٍ مِن جُدْرانِها. قُلتُ في نَفْسي: لَيلةٌ طَويلةٌ غابَ عَنها القَمرُ في ظِلِّ ضَوْءِ مَصابيحِها الكَهرُبائيَّة؛ يا لَتَعاسَتي، لِماذا لا أُسْتدْعَى في حَفْلِ عَشاءٍ أو سَهرةٍ آنَسُ بِها؟!.

قُلتُ: (لِفِكْري) الَّذي اسْتدْعاني، ما القِصَّة أيُّها المُحْترمُ؟. فقالَ: أتَى هَذا الشّابُّ بفَتاةٍ هو وصُحْبتُهُ في خُفيةٍ وحِيلةٍ، ظنًّا مِنهُم أنَّنا لَم نَرَها ولَم نَشْعرْ بِما يَدورُ حَولَنا، وبَعدما تَأكَّدْنا مِن دُخولِها، رَفعْنا أصْواتَنا ببعضِ الكَلماتِ الَّتي تُوحي بأنَّنا علَى عِلمٍ وسَيُفْضحُ أمْرُهُم، وكانَ مَقْصدُنا هو أنْ نُخيفَهُم رَيثَما نَجِدُ حَلًّا، وبالفِعلِ نَزلَ ثُلاثتُهُم كَي يَثْبتوا لَنا بَراءتَهُم، وأنَّهُ ليسَ بحَوزتِهِم فَتاةٌ، أغْلقوا البابَ وتَفرَّقوا كُلٌّ في ناحيَةٍ كَي يَسْبِغوا أنَّهُ لا شَيءٌ.

تارِكين الفَتاةَ وَحدَها في الأعْلَى، فيَعودون إليْها بعْدما يَتفرَّقُ الجَمعُ.

قُلتُ لَهُ : (في دَهْشةٍ وحيرةٍ) ما العَملُ؟.

قالَ: نُبَلِّغُ صاحِبَ العَقارِ وهو يَتصرَّفُ.

قُلتُ: لو فَعلْنا هَذا لَتزْدادَ الجَريمةُ وعَمَّتْ الفَضيحةُ أرْجاءَ الحَيّ، ونحْنُ نُريدُ الكِتْمانَ، والبُعدَ عمَّا يُلوِّثُ اللِسانَ. اقْترحَ بعضُ أصْدقاءِ (فِكْري) إبْلاغَ أحدِ أقاربِهِ أو أحدِ كُبرائِهِ ويَأتي ويَنْهي هَذا الأمْرَ. وافَقتُهُ ووافقَهُ الجَميعُ ولكِنَّ الوَقتُ كانَ مُتأخِّرًا، كيفَ نَتَّصِلُ بأحدٍ في وَقتٍ كَهَذا؟!.

كانتْ تَمرُّ عَلينا الدَّقيقةُ وكأنَّها ساعةٌ مِن نَهارٍ في أشِعَّةِ الشّمسِ المُلتهبةِ، حَزمْنا أمْرَنا واتَّصلتُ بِمَن أتَوسَّلُ فيهِ الحِكْمةَ والرَّزانةَ، فأنا أعْلمُ بأنَّهُ سَيتفهَّمُ ويَأخذُ المَوْضوعَ بِجدِّيَّةٍ، فعِلاوَةٌ علَى أنَّهُ قَريبُ صاحِبِنا فهو أيضًا ذو صِلةٍ بصاحِبِ العَقارِ، ويَسْتطيعُ تَأمينَ دُخولِنا وتَسْهيلَهُ؛ فاسْتمرَرْتُ في رَنينِ الهاتِفِ فلَم يَردَّ، حاوَلتُ أنْ أجِدَ غيرَهُ ولكِنْ لَم يَكُنْ أحدٌ مُناسِبٌ يَسْتطيعُ أنْ يَحلَّ مَحلَّهُ، فرُحْتُ أرِنُّ عليهِ مرَّةً أُخْرَى وأكْثرتُ في الإلْحاحِ، وتركْتُ خَجلي مِنهُ جانِبًا. وبعْد عِدَّةِ مرَّاتٍ ردَّ عليَّ بصَوْتِ النُّعاسِ، فاعْتذرتُ مِنهُ وبَدأتُ بالشَّرحِ، وطَرْحِ القِصَّةِ علَى لِسانِ راويها؛ وأنْهيتُ كَلامي. وقُلتُ: مُهمَّتُنا هي خُروجُ تِلكَ الفَتاةِ ونُنْهي المَوْضوعَ بسَلامٍ. وأغْلقتُ الهاتِفَ وذَهبتُ لإتْيانِهِ، وفي الطَّريقِ شَرحْتُ لهُ هَدفَنا

وخُطَّتَنا. وقَدِمْنا إلَى المَكانِ وطَلبتُ مِن الإخْوةِ أنْ يَتنحُّوا جانِبًا ونحْنُ سَنتَصرَّفُ، تَقبَّلوا الأمْرَ بصَدرٍ رَحبٍ.

ودَخلْنا أنا و(فَوزي) كُلٌّ مِنَّا مِن جِهةٍ كَي نُفْشِلَ خُطَّةَ هُروبِ الفَتاةِ، ونُحْكِما قَبْضتَنا علَى المَكانِ، فبَحثْنا في المَكانِ شِبرًا شِبرًا، حتَّى مَسحْنا الدّورَ الأرْضيّ بأكْملِهِ، وبَعدها صَعدْنا للطَّابقِ الثَّاني (وكَأنَّنا فِرقةُ مُخابَراتٍ تَهجُمُ علَى البَيتِ)، وَجدْنا الأبْوابَ مَفْتوحةً والغُرفَ لا تَحْوي إلّا صَمتَها غيرَ أنَّ هُناكَ غُرْفةً تطلُّ علَى الشَّارعِ خالَفتْ أخَواتِها، فهي مُؤْصَدةٌ بإحْكامٍ مِن الدَّاخلِ، شَكَكْنا في أمْرِها وتَأكَّدَتْ ظُنونَنا عِندما حاوَلْنا فَتحَها، طَرقْنا البابَ فلَم تَردَّ النِّداءَ، فوَعدْناها بالخُروجِ الآمِنِ، وأنَّها لَن تُمسَّ بسُوءٍ، ولكِنْ دونَ جَدْوَى فقَد رَفضَتْ المُثولَ أو الاسْتجابةَ.

شاطَ غَضبُ فَوزي فحاولَ كَسرَ البابِ؛ فناشَدتُّهُ بأنَّ صَنيعَهُ هَذا سوفَ يُصْدرُ ضَوْضاءً ويُثيرُ الشَّغبَ، وهَذا ليسَ ضِمنَ خُطَّتِنا.

وقُلتُ لَه: اتَّصِلْ بهِ (شَوقي)، واجْعلْهُ يَأتي ويُخرجُها هو بمَعْرفتِهِ؛ وقَبل أنْ نَتَّصِلَ دَخلَ عَلينا صاحِبُها في دَهْشةٍ لوُجودِنا.

بَهتْناهُ قائلين: كُلُّ شَيءٍ انْكشفَ وفاحَتْ رائِحتُهُ، نَرْجو مِنكَ أنْ تُخْرجَ الفَتاةَ ونُنْهي الأمْرَ ؟.

فتَحوَّلَ وَجْهُهُ المُتعجِّبُ إلَى وَجهٍ مَلائكيّ حَزينٍ، وكَأنَّه يَتلصَّصُ مِن فِعلتِهِ الَّتي لَم تُحالِفْهُ الظُّروفُ أنْ يَرْتكِبَها؛ كانَ مُتردِّدًا بيْن التَّصْريحِ وبيْن الإنْكارِ، ولكِنْ لا مَجالٌ للإنْكارِ في ظِلِّ مَسْرحِ الجَريمةِ. فكادَتْ أنْ تَحْدُثَ مُشادَّةٌ كَلاميَّةٌ بيْنهُ وبيْن قَريبِهِ ولكِنْ بهُدوءِ أعْصابٍ مِنِّي وبمُزْحةٍ ساخِرةٍ، قُلتُ: عِندما نَخْرجُ مِن هُنا افْعلا في بَعضِكُما ما تَشاءان، أمَّا السَّاعةُ فنُريدُ ضَبطَ النَّفْسِ وإخْراجَها بسَلامٍ، وقَدْ كانَ. عَزَمْنا علَى إخْراجِها وألا نُبقيَها تِلكَ اللَيلةَ مَهْما كَلَّفَنا الأمْرُ.

تَناقشْنا في كَيفيَّةِ خُروجِها، أسَيْرًا علَى الأقْدامِ أم تَركبُ عَربةً حتَّى نَطْمئِنَّ علَى سَلامتِها؟. و بالفِعلِ تَمَّتْ المُوافقةُ علَى جَلبِ عَربةٍ فطَلَبْتُ مِن (فَوزي) أنْ يَجلِبَ سَيَّارتَهُ، فخَرجَ علَى الفَورِ؛ وبَقيَ ثُلاثتُنا هي بالغُرفةِ ونحْنُ في الطَّابقِ الأرْضيّ، هو بيْن تَوتُّرٍ و قَلقٍ، وأنا ما بيْن سُخْريةٍ مِن المَوقِفِ ومَرحٍ كَي أُهوِّنَ مِن وَطْأةِ الوَضْعِ والحدُّ مِن المُشْكلةِ.

مرَّتْ دَقائقٌ مَعْدودةٌ، وجاءَتْ السَّيَّارةُ فأوْقفْناها عِند البابِ الخَلْفيّ؛ وطَلَبْتُ مِن صاحِبِنا أنْ يَصْعدَ لجَلْبِها، وعِند صُعودِهِ الدَّرجِ قُلتُ لهُ: (مازِحًا) أبْلِغْها سَلامي وقُلْ لَها أنْ تَحْفظَ صَنيعي هَذا.

ـ ابْتسمَ فَرحًا ولَم يَردَّ جَوابًا، فعَلمْتُ أنَّ الأُمورَ تَصيرُ علَى ما يُرامُ؛ وخَرجتُ في الشَّارعِ أنْظرُ يَمْنةً ويَسْرةً كَي أُشْرفَ علَى التَّأْمينِ وأرَى الوَضعَ وأُعْطي الإشارةَ للخُروجِ.

وبالفِعلِ وَجدتُّ الأجْواءَ مُريحةً، فأمَرتُهُم بالخُروجِ، ولَم أكُنْ بعْد رَأيْتُ الفَتاةَ ولا شاهَدتُّها إلّا عِند خُروجِها مِن البابِ لتَركبَ السَّيَّارةَ.

فرَأيْتُ فَتاةً حَياؤُها مَنْزوعٌ، ووَجْهُها مَرْصوفٌ، بيْن مُسْتحْضَراتِ التَّجْميلِ وبيْن قُبْحٍ مَصْنوعٍ، فَقدَتْ شَحْمَها وبَقيَتْ عِظامُها مَلْفوفةٌ ببَشْرتِها السَّمْراءِ.

فرَكِبا السَّيَّارةَ، وما إنْ وَطأتْ أقْدامُهُم حتَّى انْطلَقتْ بِهِم بسُرْعةِ الضَّوءِ خَشْيةً أنْ يَراهُم أحدٌ. وبَقيْتُ أنا، مُهمَّتي تَمَّتْ ورِسالَتي خُتِمَتْ؛ بلَيلةٍ مُلوَّثةٍ بفَتاةٍ سَمحَتْ لنَفْسِها أنْ يَقْتربَ مِنها حِرفِيُّون ومِهنِيُّون وفَلَّاحون وعُمَّالٌ وفِئاتٌ.

دَعْني أمْزحُ قَليلًا فبعْضُ المَواقِفِ تُجْبرُكَ علَى الضَّحكِ والسُّخْريةِ حتَّى تَسْتطيعَ المُواصَلةَ؛ فهُناكَ مَن يَتلذَّذون بالحَرامِ، في وَقْتٍ يَمرُّ بأُناسٍ بِلا مَأوًى أو طَعامٍ.

قَيْدُ التَّطَوُّرِ

في مِنطقةٍ مَعزولةٍ عَن وَكْبِ التَّطَوُّرِ الاتِّصالِي، هُدِّدَ أمْنُها و شَبَّ بِها حَريقُ الحِقْدِ والضَّغِينةِ بيْن أهْلِها. ففِي شِتاءِ عامِ (٢٠٠٧ م) أعْلَنَ أحدُ سُكّانِ المِنطقةِ عَن تَركيبِ شَبكةٍ لإحْدَى شَرِكاتِ الاتِّصالِ الَّتي تُريدُ مَدَّ بَثِّها فِي الأنْحاءِ النّائِيةِ، ومَا أنْ أُذيعَ النّبأُ حتَّى اجْتمعَ الدّاني والقَاصي عِندَ بَيتِ (حِمْدان) يُعْلِنون احْتجاجَهُم، ورَفضَهُم مُلَوِّحين بِلُغةِ التَّهْديدِ تارَةً، وبلُغةِ التَّهكُّمِ والسُّخريةِ تارَةً أُخرَى، حتَّى خَرجَ إليهِم.

قائِلًا: هَذه شَركةٌ مُعتمدةٌ مِن الدَّولةِ وليسَ فِي تَركيبِ شَبكتِها أيُّ أضْرارٍ، وتِلكَ الشّركةُ قدْ اسْتأجرَتْ سَطحَ مَنْزلي فلَها كَامِلُ الحَقِّ فِي التَّصرُّفَ بِهِ، فلا داعٍ لِوُجودِكُم واعْتراضِكُم.

ومَا أنْ أنْهَى كَلمتَهُ حتَّى انْهالتْ عليهِ الهَمزاتُ واللَمزاتُ، والشَّتائمُ والتَّهكُّماتُ؛ فنَظرَ إليهِم بِازْدراءٍ وأغْلقَ البابَ بِاجْتراءٍ.

فزادَتْ فِعلتُهُ مِن غَضبِهِم وعُنفِهِم اللَفْظيّ الَّذي تَطوَّرَ إلَى فِعلٍ، فأعْلَنوا علَى قَلبِ رَجُلٍ واحِدٍ مُكْثَهُم أمامَ بَيتِهِ مُعتصِمين.

وقَاموا بِتَوزيعِ الأدْوارِ وبِتَأمينِ المَكانِ وبِجَلبِ المُؤنِ مِن طَعامٍ وشَرابٍ، وبِتَجْميعِ أكْبرِ كَمِّيّةٍ مِن الحَطبِ كَي يُشْعلوها لِتَبثَّ حَرارتَها في المَكانِ؛ وتُلقيَ بالرُّعبِ في قَلْبِ حِمْدان وأُسْرتِهِ الَّذين خُيِّلَ لَهُم مِن الوَهْلةِ الأُولَى أنَّهُم علَى أعْقابِ مَجزرةٍ تُودِي بحَياتِهِم إلَى الهَلاكِ؛ ولَم يَكُنْ لَهم أقارِبٌ أشِدَّاءٌ أو مَعارِفٌ ليَزجُّوا عَنهُم تلكَ الاندْفاعاتِ.

فأيْقنوا أنَّهُم سَيموتون حَرقًا، فسارعَ حِمدان إلَى هَاتفِهِ الأرْضيّ ليُبْلغَ بعْضًا مِن أقَاربِهِ ومَعارفِهِ كَي يَقِفوا في صَفِّهِ، فلَم يَجدْ مِنهُم إلَّا اسْتجابةً عَاطفيّةً لا فِعليّةً.

فنَهرتْهُ زَوجتُهُ بعد المُكالمةِ، وقالتْ لَه: ألَم أقُلْ لكَ أنَّ أقارِبَكَ غُثاءٌ لا شأنٌ لَهُم ولا مَوقفٌ إلَّا أنَّهم مُشاهِدون.

(ورغم أنَّ حِمدان بِطَبيعتِهِ هادِئٌ إلَّا أنَّه) انْفعلَ ولَطمَها علَى خدِّها بِقُوَّةٍ فارْتطَمتْ علَى الأرْضِ، فهَبَّ بَناتُها و صِغارُها يُهدِّئون مِن رَوعِها؛ في حين أنَّ حِمدان طَلبَ مِن إحْداهنَّ فِنجانَ قَهوةٍ، وجَلسَ في رُكْنِهِ يَشربُ القَهوةَ ويُرفِقُها بِأنْفاسِ سِيجارِهِ، مُسْتمِعًا لِتلكَ الأصْواتِ الَّتي تَنالُ مِنهُ ومِن شَرفِ أُسرتِهِ.

مَرَّتْ عليه اللَيلةُ والنَّومُ لَم يَقترِبْ مِن جِفْنيْهِ، وصِغارُهُ حولَ قَدميْهِ يَرتجِفون خَوفًا، أمَّا زَوجتُهُ ففي الرُّكنِ البَعيدِ دُموعُها تَسيلُ؛ فلقَدْ فَقدوا الآمانَ كَما فَقَدَ المُعتصِمون كَمّياتِ الحَطبِ، فشَرعوا في فَرضِ إتاوَةٍ علَى سُكّانِ المِنطقةِ والمُعتصِمين لِجلبِ ما في بُيوتِهِم مِن أخْشابٍ كَي يَستمِرُّوا في اعْتصامِهِم، ويَحْتموا مِن بَردِ الشّتاءِ القارِسِ، ويَدبَّ الرُّعبُ في قَلبِ حِمدان وأسْرتِهِ.

وكانتْ مَطالِبُهُم مُعلنةً وواضِحةً أنَّ هَذه الشّبكةَ لَن تَبثَّ تِلكَ الأمْراضَ

والسَّرطاناتِ في مِنطقتِهم.
عَلِمَ الأمنُ بِالمُشكلةِ وتَفاقُماتِها ودَرسَ حَيثيّاتِها، فوَجدَ أنَّ حِمدان مَوقفُهُ سَليمٌ قانونيًّا وصِحيًّا، وأنَّ المُعْتصِمين مَوقفُهُم فيه قُوّةٌ وثَباتٌ وفضُّ اعْتصامِهِم يُشكِّلُ تَفقيمًا للمُشكلةِ، وحَربًا لا نِهايةٌ لَها.
فاخْتارتْ قُوةُ الأمنِ أنْ تَنضمَّ إلَى صُفوفِ المُعتصِمين، ووَعدتْهُم بتَلبيةِ مَطالبِهِم و الاسْتجابةِ لَها، وأمرتْهُم بالأنصرافِ ولكِنَّهُم أعْلنوا أنَّهم لَن يَتحرَّكوا، ولَن يَبرحوا مَكانَهُم حتَّى يَجِدوا مَطالبَهُم واقِعيّة.
فلَم تَجدْ القُوةُ الأمْنيةُ حِيلةً إلَّا أنْ تَتكلَّمَ مَع حِمدان وتُجبرُهُ علَى الرُّضوخِ لكُلِّ المَطالبِ؛ فتَعجَّبَ مِن كَلامِهم فلَم يَنطِقْ إلَّا بإشارةِ رأْسِهِ مَيلًا بالمُوافقةِ لكِنَّ لِسانُ حالِهِ كانَ يَحْوي الكَثيرَ ويَئِنُّ؛ قائلًا:
« أدَولةُ قانونٍ هَذه أم غابةٌ، فيها يُأكلُ الضَّعيفُ ويُسنُّ لقَويّها المَقامُ؛ هَذا حالي لا يَخفَى ولكِن مَوقِفي سَليمٌ فخَذلتُموني لأنِّي ضَعيفٌ، تحتَ أمْرِكُم فافْعلوا ما تُأمَرون. فهي دَولةٌ تُنتهَكُ فيها الأعْراضُ والحُقوقُ، وأنا بين زَهرانيّ أهْلي، لا نَصيرٌ لي ولا مُعين ».
وودَّعهُم بنَظراتٍ بائِسةٍ خالَطتْها قِلّةِ الحِيلةِ، وخَرجوا مِن عِنده يُعلِنون البُشرَى للمُعتصِمين؛ فتَعالتْ أصْواتُهُم بالفَرحِ والزّغاريدِ.
وحِمدان يُراقِبُ ويَسْمعُ الأصْواتَ، فلَم تُؤلِمْهُ أصْواتُ الزّغاريدِ بقدْرِ ما أحْرقَهُ صَوتُ عَرباتِ الشُّرطةِ وهي تُغادِرُ المَكانَ، فلقَدْ أيْقنَ وعَلِمَ مَصيرَهُ.
وظَلّتْ المِنطقةُ مَعزولةً عَن جارتِها، مُتمسِّكةً بمَبادِئها، رَفيعةً بتَقاليدِها.

ثَلاثةُ قُروشٍ

أنا وخَطيبي نَتوهُ مِن بَعضِنا في زَحْمةِ الأيَّامِ ولا نَجِدُ إلَّا الهاتِفَ سَبيلًا لتَواصُلِنا، وما إنْ تَتعطَّلَ الشَّبَكةُ ولا تَبثُّ إرْسالَها إلَّا ويكونُ قَطعًا لأوْردتِنا الدَّمويَّةِ فلا تَضخُّ دِماءً في قُلوبِنا حتَّى يَرْجعَ الاتِّصالُ ونَنْعمُ بالكَلامِ.

وكُنَّا نَبْحثُ عَن العُروضِ الهاتِفيَّةِ التَّابِعةِ للشَّركاتِ الاتِّصاليَّةِ كَي نَجِدَ أوْفرَها وأكْثرَها فاعِليَّةً، ولا نَكادُ نَفْرحُ بعَرْضٍ حتَّى تَقومُ الشَّركةُ بتَغْييرِهِ فورًا، وكأنَّها تَمْتصُّ راحتَنا كَما تَمْتصُّ أمْوالَنا؛ فضِقْنا ذَرْعًا مِن تِلكَ الشَّركةِ المُسْتغِلَّةِ الَّتي تُريدُ جَنْيَ الأمْوالِ الطَّائلةِ منَّا، وتُلْحِقُ الإفْلاسَ بِنا، ولكِن كانَ هَذا حالُنا.

تَمنَّيتُ أنْ نَتزوَّجَ قَريبًا كَي نَخْرجَ مِن تِلكَ العَباءةِ الاسْتغْلاليَّةِ، فمُعْظمُ مَصْروفاتِنا تَضيعُ هَباءً بلا فائدةٍ حتَّى خَوتْ جُيوبُ خَطيبي وشَريحَتُهُ مِن الرَّصيدِ فلَجأْنا إلَى (خِدمةِ سلِّفْني شُكرًا) الَّتي تَمثَّلتْ لَنا كَرمالٍ مُتحرِّكةٍ تَبْلعُ ولا تَلْفظُ.

وفي يَومٍ مِن الأيَّامِ داهَمَني خَطيبي الحَبيبُ ذو الوَجهِ البَرئ، أنَّه اشْترَى كارْتًا بقيمةِ خَمْسين جُنيهًا ووَزَّعَها مُناصَفةً بيني وبينه؛ كانَ عَملًا وتَصرُّفًا مُسْتغْربًا مِنهُ في ظلِّ أزْمتِنا الاقْتصاديَّةِ ولكنَّه كانَ عَلامةً علَى مَحبَّتِهِ لي وتَعلُّقِهِ بي.
كانَتْ سَعادَتي غامِرةً ولكِنْ قلَّصَتْ مِنْها تِلكَ الخِدمةُ الفتَّاكةُ (سلِّفْني شُكرًا) فقَدْ أخذَتْ نِصفَ المَبلغِ تقْريبًا، ونَزعتْ بذَلكَ فَرحَتي ولكِنْ بَقيَ لَنا أيَّامٌ نَسْتمْتعُ بباقي المَبلغِ وعَزمْنا علَى أنْ نَنْأى بَعيدًا عَن هَذه الخِدمةِ ولا نَسْتخْدمُها أبدًا، حتَّى نَفَدَ الرَّصيدُ تمامًا مِن كِلَيْنا، وبَقيَ مَعي قُروشٍ بَسيطةٍ، تُرى كيفَ نَتصرَّف؟.
فقالَ لي خَطيبي:
سوف أرْسلُ لكِ جُنيهًا كَي نُكْملَ تَكْلِفةَ العَرضِ وهو أخِرُ جُنيْهٍ مَعي.
وبالفِعلِ أرْسلَهُ كَي نَبْدأُ بالعرضِ ونَتحدَّثُ؛ فهَذه السُّوَيْعاتُ هي مُفْترقُ الطُّرق في نَهارِنا المُمْتلئ بالمَشاغِلِ والازْدِحامِ اليَوميّ.
وعِندَما اتَّصلْتُ بهِ لَم تَكْتملْ المُكالمةُ، وانْتابتْني دَهشةٌ ما الَّذي حَدثَ الشَّبكةُ مُتاحةٌ!، عاودتُ الاتِّصالَ فإذا بخِدمةِ العُملاءِ تَقولُ لي: قَدْ نَفدَ رَصيدُكُم. وتَساءلتُ لِماذا؟!، فجاءَ الرَّدُّ مُفْجِعًا: وهُو أنَّ رَصيدَكُم كانَ يَنقصُهُ ثلاثةَ قُروشٍ، فعليكُم الشَّحنُ مرَّةً أخْرَى. فقَد ضاعتْ النقودُ هَباءً بلا اسْتِفادةٍ، يالَلَّعنة، أأُحْرمُ مِن خَطيبي مِن أجْلِ ثَلاثةِ قُروشٍ نَقْديةٍ؟!.
أيُّ مُصيبةٍ تِلكَ؟!، وأيُّ فَجْعةٍ هَذه؟!. ألا تَسْتحي تِلكَ الشَّركةُ؟!،

ألا تَخْجلُ؟، فكَم ابْتلعتْ مِنَّا أمْوالًا!،
وكَم هَتكَتْ مِنَّا رَصيدًا بدونِ وَجهِ حقٍّ!، وكَم أغْرقَتْنا في خَدماتٍ لا أوَّلُ لَها ولا أخِرُ، والآن تُحْرمُني بسببِ ثلاثةِ قُروشٍ!.
فسُحقًا لهَذا العَددِ، وسُحقًا لهَذه القُروشِ، وسُحقًا لتِلكَ الشَّركةِ؛ فلقَدْ حَرمَتْني اللَيلةَ مِن آنيسي الوَحيد.

فتاةُ الفراخِ

الحوائطُ المُبتلَّةُ، صَوتُ السَّياراتِ المُزعِجةِ، أفْراخُ والدَتي الَّتي تقومُ بتربيَّتِهِم، عُصفوري الشِّريدُ الَّذي أُطْعمُه، الأبْوابُ المفْتوحةُ والشَّبابيكُ، كُتبي المَدرسيةُ، صُورةٌ مُتكرِّرةٌ مِنْ حَياتي اليوميَّةِ.

طالما تحدَّثْتُ مع عُصْفوري، فإنَّه يُشبهُ حالتي كَثيرًا، ويَعيشُ مُعاناتي، هو أصْبحَ مُؤنسِي، وأنا أصْبحتُ حياتَهُ، حياتُنا سويًّا، حياتُنا معًا، أصْبحتْ حياةً مُتناغِمةً. لا أذْكرُ كيفَ اجتمَعْتُ بهِ أو اجتَمَعَ بي، لكنْ رُبَّما تجْمعُ الحياةُ، مَنْ لَهُم نفسُ الخَصائصِ والصِّفاتِ.

فمُعْظمُ أيّامي أُقْضيها ليلًا في نافِذتي الَّتي تطُلُّ علَى النِّيلِ صيفًا وشتاءً، وإنْ كُنتُ أُحبِّذُ الشِّتاءَ أكثر؛ رَغم انْتقاداتِ والدَتي لي بسببِ جُلوسي وحْدي في ظُلمةِ الليلِ في الطَّابقِ العُلوي مَعَ الأفْراخِ أمامَ النَّافذةِ؛ وهَذا البردِ القاسي الّذي يُصيبُني كالأعوامِ السَّابقةِ بمرضٍ شديدٍ .

ـ نجْوى، نجْوى . (ها هي والدتي ، وها هو صُوت أمِّي).

أظُنُّ أنَّها تُريدُ مَنْعي مرةً أُخرَى أو أنَّ الطعامَ تمَّ تحضيرُهُ ، هَذا فقطْ الَّذي

يدُورُ بيني وبينها طوالَ اليَوم، فأنا لا آخُذُ مِنْ اهْتمامِها إلّا القليلَ، ومِنْ حُبِّها إلّا اليسيرَ، رُبَّما ابْتلعَتْهُ أخْتي الصَّغيرةُ هِند. لا أدْري إنْ كُنَّا مُتنافِسين أو مُتنازِعيْن علَى المركزِ الأوَّلِ لاهْتمامِ والدَتي.

ـ هِند ماذا تُريدين ؟.

ـ لا شَيء ، أمِّي كانتْ تُنادي عليكِ ولم تَردِّي، لِماذا؟!.

ـ لا شَيء هِند، سأنْزِلُ.

طَالما عانَيْتُ مِنْ أخْتي الصَّغيرةِ فهُم يفضّلُونَها عليَّ كثيراً، ودومًا هي الخارجةُ عَن نِطاقِ الصَّلاحيةِ، فإذا ما دارَتْ بيننا معركةٌ أو مُشادةٌ كَلاميةٌ، فإنَّ المَحكمةَ لها حُكْمُها المُسبقُ بإدانَتي وحَبْسي علَى ذمَّةِ التَّحقيقِ، وتتكوَّنُ مِن أبي وأمِّي، وأخَواتي فايزة وياسر.

وإنْ كانَ أخي ياسر أقربَ إليَّ مِنهم؛ فهو الوَحيدُ الَّذي اهْتمامُهُ بي يزيدُ، وأُحسُّ بيننا برابطِ الأُخوَّةِ المَتينِ؛ فيُفضِّلُني كثيراً علَى أخَواتي: فايزة الأكبرُ منِّي سنًّا والمُسَيطِرةُ، وأُخْتي هِند الصَّغيرةُ المُدلَّلةُ.

حَياتي أُنهكُها في الدِّراسةِ والتَّعلُّمِ والتَّفوُّقِ؛ نعم التَّفوق وهَذا ما حصلْتُ عليه في السَّنةِ الماضيةِ، رُبَّما هَذا ما لَم يَتوقعْهُ الكَثيرون، ورُبّما هَذا الشَّيءُ الوَحيدُ كي أحْظَى باهْتمامِ الأخري .

هَكذا تمْضي أيّامي لا جَديدٌ ولا حَديثٌ؛ وفجْأةً تُحطِّمُ كآبةَ الليلِ

وظُلمتَهُ رنَّةُ هاتِفي؛ إنَّه الشَّخصُ الَّذي بنورِهِ تَتَفَتَّتُ الظُلماتُ، وبطلعَتِهِ تُشفَى الآهاتُ، وبضحكتِهِ تَنْثُرُ العُطورُ قَطَرَاتِها، وتأجِّجُ الأزهارُ وُرُودَها.
جعلَ لِحَياتي نَمَطًا جَديدًا، ولِدُنيَتي بهْجةً وعيدًا، ولوَّنَها بطَعمٍ مَذاقُهُ حلوٌ مَديدًا، مَسحَ وحْدَتي وجدَّدَ أيَّامي؛ لا أرَى الاسْتغناءَ عنْهُ إلّا انْتحارًا، والبُعدَ عنْهُ إلّا دَمارًا. أُحبُّ كُلَّ شيءٍ فيه هَمساتِهِ حَركاتِهِ، أقوالَهُ أفْكارَهُ.
عِندَما أردُّ عليه، يقول لي : أين تجْلِسين الآن؟! .
ــ أنا بجوارِ النَّافذةِ.
ـ تقْصدين بجوارِ الفِراخِ.
_ أبْتسِمُ، وأقولُ نَعم.
ــ فيقولُ لي: (بصَوتٍ يَعْلُوهُ الحَنانُ والجَمالُ،
وتحتهُ السُّخريةُ والدَّلالُ) إذًا أنتِ فتاةُ الفراخِ!.
ـ أبْتسِمُ، ونسْتَكْمِلُ حَديثَنا العَذبَ الَّذي يُنسِيني ما مَضَى وأسْرَحُ معهُ في خَيالي كي أُداعِبَ الأملَ؛ ويَدورُ في ذِهني تَساؤلٌ:
هلْ هَذا حُلمٌ أم حَقيقةٌ؟!، هلْ هَذه الجنَّةُ ؟!، أم ما يدُورُ حَولي وَهْمٌ وصورةٌ ؟!؛ أبْدَعْتُها في عالَمي وفي خَيالي.
هلْ هَذا هو عُصْفوري الشَّريدُ؟!، تجَسَّدَ وأصْبحَ شابًّا وَسيمًا، يُكلِّمُني بأفْصَحِ العِباراتِ، ويُأجِّجُ مَشاعري بأحْسنِ الأقْوالِ أم ما مَضَى ليسَ إلّا ريبةً؟.
هو لَم يَرَني حتَّى الآن ولكنِّي أراهُ في سكُونِ الأشْياءِ وتحرُّكاتِها.
فلا يَهُمُّ ما يَعْتَريني مِنْ حِيرَةٍ، فلقَدْ جرَّبْتُ الوحْدةَ السَّعيدةَ؛
ـ غير أنِّي أقولُ: « جميلٌ أنْ ترَى عُصْفورًا يتَّسِمُ بالجَمالِ،
ولكنَّ الأجْملُ أنْ ترَى الجَمالَ في شخْصٍ كالعُصْفورِ «.

خُذْ مِنِّي و لا تُناقِشْني

بالقُربِ مِن القاهِرةِ تقعُ بلْدَتي، جَلستُ ذاتَ مرَّةٍ في مقْهَى
علَى الطّريقِ السّريعِ، فوجدتُّ هُتافاتٍ كانتْ تَجوبُ الشّوارِعَ الرَّئيسيّةَ
ـ « إسْلاميّة إسْلاميّة »، « الإسْلامُ هو الحلّ ».

وكان أحدُهُم مُتحمِّسًا ووِجْهتُهُ وملامِحُهُ تسرُّ النّاظِرين، جَلسَ معَنا
يَدْعو الآخَرين بتِلكَ الشِّعاراتِ؛ أحْبَبْتُ أنْ أدْخلَ في الحِوارِ فطرحْتُ عليه
عِدَّةَ تساؤُلاتٍ بُغْيَةَ أنْ أجِدَ ردًّا علَيها مِن قِبلِهِ.

فقُلتُ له:
يا أخانا كيفَ تمْزِجُ بين أخْلاقيَّاتِ الإسْلامِ وبين السِّياحةِ؟، وهي دخْلٌ قَوْميّ واقْتصاديّ؛ كيفَ ترَى البَرنامِجَ والرُّؤيةَ الإسْلاميَّة لها؟.
زاغَتْ عَيْناهُ مُخْتلِطةً بتَعجُّبٍ مَقيتٍ وابْتسامةٍ دالَّةٍ
علَى أنِّي صُنِّفتُ مُعاديًا.
حدَّثتُ نفْسي قائلًا:
(هَذه بَوادِرُ النَّصرِ) .
وابْتلَعْتُ رِيقي، ورَسمْتُ علَى وَجْهي ابْتِسامةً مُتلوِّنةً.
وقُلتُ لهُ:
هو مُجرَّدُ تساؤُل يا أخي.
فقال: أشْتمُّ في طريقتِكَ الخُبثَ.
ضحِكْتُ! (مُتعجِّبًا) قائلًا: أنتَ لستَ بقاضٍ بلْ أنتَ رَجلٌ داعيَةٌ، والمُفْترضُ أنْ تُجيبَ عَن التَّساؤُلِ حوْل سِلعتِكَ، فإمَّا أنْ تُجيبَ أو علَى الرَّحبِ والسّعةِ.
وعلَى كُلِّ حالٍ دَعْكَ مِن هَذا؛ حدِّثْني كيفَ ترَى آليَّاتِ البَرنامِجِ الإسْلاميّ لحصْرِ المُسْكِراتِ والتدْخين؟، وما هي الخطَّةُ في القَضاءِ عليْهِما؛ شَريطةَ أنْ تَمْزجَ بين دخْلِ الفردِ وبين الأخْلاقيَّاتِ الإسْلاميةِ وبين اقْتصادِ الدوْلةِ؟.
عاوَدَ نظْرتَهُ إليّ بابْتسامةٍ ساخِرةٍ، وكأنِّي طِفلٌ يلْهو أمامَهُ.
(ارْتعدتُ خشيةَ أنْ يخرُجَ عَن شُعورِهِ فيُؤْذيني) .
واسْتأْنفْتُ قائلًا:
(بصوتٍ هامِسٍ وخافِتٍ)
كيفَ ترَى دسْتورًا إسْلاميًّا يمْزجُ بين الأصالةِ والمُعاصِرةِ؟،
بحيْثُ يلْمسُ الواقِعَ ويدْنو مِن عامَّةِ النّاس، ويروقُ للفِقْهِ والشّريعةِ؟؟.
نظرَ إليَّ مُجدَّدًا (بملامِحٍ غاضِبةٍ وابْتسامةٍ صفْراء)

وكأنِّي معْتوهٌ خارجًا عَن الشّريعةِ، وأنْتمي إلَى العِلْمانيّةِ المقيتَةِ.
في هَذه اللحْظةِ لَم أخَفْ ولَم أرْتعدْ، فلقَدْ أيْقنتُ أنَّني سأموتُ!!
إنْ لم يكُنْ بيدِهِ واشْتعالِ سَخطِهِ، فبإجاباتِهِ السَّمِجةِ.
وبعْد لمْحةِ طرْفٍ أدْخلَ يدَهُ في جيْبِهِ،
(فازْدادتْ ضرَباتُ قلْبي فهمَمْتُ ناطِقًا الشّهادة) .
فأخْرجَ مِنْديلًا وجفَّفَ عرَقَهُ راسِمًا ابْتسامةً علَى شفتَيْهِ
قائِلًا بكُلِّ إخْلاصٍ (ربنا يهديك) .
فابْتسمتُ راضيًا وتنفَّستُ الصّعْداءَ ليسَ لدعْوتِهِ ولكِن لأنَّ الموْقِف مرَّ بسلامٍ، وهمَّ واقِفًا وَسْطَ الجَمْعِ ويداهُ مُرتعِشتان سلَّمَ عليْنا وذهبَ مُسرِعًا في خُطُواتِهِ، حتَّى غابَ عَن أعْيُنِنا.
تاركَنا في حيرتِنا بين شريعتِنا وبين الحُلولِ المُسْتوْردةِ لمُشْكلاتِنا.
فأُصِبْتُ ببعضِ اليأْسِ وخيْبةِ الأمَلِ جرَّاء مَنْ يتصدَّرُون لمشْهدِ الدَّعْوةِ والسِّياسةِ؛ فكَّرتُ في مكانٍ هادِئٍ كَي يُصْبغَ عليَّ الهدوءَ النّفْسيّ، فآوَيْتُ إلَى شاطِئِ نهْرِ النّيلِ بالقربِ مِن مَنزِلي.
جلَستُ وألْقيْتُ بصِنّارتِي كَي أصْطادَ بعضَ السّمكِ، مُسْتمِعًا للموسيقَى الكلاسيكيَّةِ.
وقاطَعَ هَذا الجوَّ الهادِئَ، (صوتٌ أجَشٌّ) نظَرتُ فوجدتُهُ ورائِي !!.
فإذا به يَقول: ألا تعْلمُ يا هَذا، أنَّ المُوسيقَى حرامٌ؟.
فلَم أنْطِقْ بأيِّ كلِمةٍ، وألْقيْتُ بصِنّارتِي في قاعِ النّهْر.
(فتعجَّبَ مِن ردِّ فِعلِي). فقُلتُ:
خشيةً أنْ تقولَ أنَّ الصِّنّارةَ حرامٌ لأنَّها تُزْهِقُ أرْواحًا لا ذنْبَ لها ولا جَريمةَ. وأنا أحِبُّكَ وأُحِبُّ ما تُحِبُّ؛ فلا تتْركْنِي بين قسْوةِ الشِّتاءِ (الغَرْب)، وبين لَهيبِ الصَّيْفِ (الشّرْق).
فقالَ لي: مَنْ أنتَ؟!.

ــ أنا إنْسانٌ مُسْتضْعفٌ في الأرضِ لا عِزَّةَ لي ولا كَرامةَ لي بين الأُممِ.
فلا تتْرُكْنِي إلَى مَنْ لا يرْحمُني ولا يُحْسِنُ إليَّ .
وبعْدها ألْقيْتُ بنفْسي في قاعِ النّهْر لعلَّهُ يرْوِي ظمَأي ويُفتِّتُ حيرَتِي، ولعلِّي أيضًا أنْ أجِدَ صِنَّارتِي.

العَجوزُ والرِّمالُ

بعْدُ اسْتوْطانِنا فِي قرْيتِنا السِّياحيَّةِ علَى شاطِئِ البَحْرِ الأحْمرِ، وضَعْنا حَقائِبَنا وتَركْنا أَجْسادَنا للرَّاحةِ لاسْتقْبالِ يومًا جديدًا باخْتِلاطِ تِلكَ الأطْيافِ والأنْواعِ والأجْناسِ مِن النَّاسِ العالَميَّةِ مِنْها والمَحلِّيّةِ الّذين اجْتمَعوا للمَرَحِ وقَتْلِ المَلَلَ؛ ولكِنَّنا ما كنَّا نُواكِبُهم فقَدْ كُنَّا نَمْرحُ علَى طَريقَتِنا الخاصَّةِ بإصْلاحِ التّكْييفاتِ، فهُم يذْهبون إلَى الشّاطِئِ ونحنُ نذْهبُ إلَى غُرفِهم نُصْلِحُ ما بِها مِن أجْهزةٍ مُعطَّلةٍ رَيْثما يَعُودون.

وكُنَّا نَجْتمِعُ فِي وجْبةِ الإفْطارِ علَى الشّاطِئِ حيثُ تِلكَ الرِّمالُ النّاعِمَةُ، والعَصافِيرُ المُغرِّدةُ، والشّمْسُ الدّافئَةُ، والوُجوهُ الباسِمَةُ؛ فتِلكَ كانتْ اللَحَظاتِ الفارِقَةَ فِي رحْلتِنا العَمليَّةِ حيثُ نخْتلطُ بالثّقافاتِ والأجْناسِ مِن بِقاعِ العَالَمِ فِي صَباحِنا.

ولَم تكُنْ تَصرُّفاتِهم تَلْفتُ الانْتباهَ، فكَانوا أُناسًا عادِيِّين بِمَلامِحِهم الأوربِّيَّةِ والأسْيوِيَّةِ مُنْسجمين، بيْن أبْيضٍ وأسْمرٍ مُتفاهِمين، ولكِنْ ما لَفَتَ الانْتِباهَ تِلكَ البَعْثةُ الَّتي كانَ يقودُها قِسٌّ أورُبِّيّ برِفْقةِ فَتياتٍ أوربِّيّاتٍ جَميلاتٍ ناعِماتٍ رَقيقاتٍ رَشيقاتٍ، مَا يُحْمدُ فِيهنَّ تِلكَ الثِّيابُ الطّويلةُ الَّتي كسَتْ أجْسامَهُنَّ، كَانوا مُلْتزمينَ بالذّوْقيّاتِ العامَّةِ وبمَظْهرِهِم التَّديُّني.

فجَذَبَني وشَدَّني إليْهم تِلكَ الفَتاةُ المَسيحِيَّةُ، مَا إنْ خَرَجَتْ مِن بَوَّابةِ المَطْعَمِ واسْتَقْبلَتْ شُعاعَ الشّمْسِ حتَّى مَكَثتْ علَى رُكْبَتَيْها تُمجِّدُ إلَهَها بالطّريقَةِ التَّقْليديَّةِ المَسيحِيَّةِ.

فما أرْوعَ أنْ تُشاهدَ تِلكَ المَلامحَ البَرئيةَ، والبَشرةَ الشّقْراءَ النّحيفةَ، تاركةً ما حَولها مِن جَمالِ الطَّبيعةِ، ورَوعةِ المَنْظرِ، وانْشغلتْ بعِبادةِ رَبِّها بالتَّوسُّلِ في غايةٍ ورِقَّةٍ!؛

ثُمَّ قامَتْ وانْتَفَضتْ سَيْرًا كَي تَلْحقَ بأصْدِقائِها وقِسِّها لكِنَّ شعْرُها الذَّهبيُّ الطّويلُ الَّذي كانَ يُداني الأرْضَ، ويَلمعُ بشُعاعِ الشّمسِ عَرْكَلَ مِن سُرْعتِها.

وبِانْتِهاءِ هَذا المَشْهدُ التّديُّني المُسْتَغْرَبُ في هَذا المَكانِ، انْتَهَى فِطارُنا وذهبْنا كَي نُكْملَ مَرحَنا في تِلكَ الغُرَفِ، وأمْضيْنا اليَوْمَ كُلَّهُ في الإصْلاحاتِ حتَّى نَسَيْنا أنَّنا في قَرْيةٍ تطُلُّ علَى شاطِئِ البَحْرِ الأحْمرِ الَّذي لَم نُشاهِدْ حُمْرتَهُ ولكِن لَمَسْنا نسائمَهُ.

وبَقِيَ علَى رَحيلِنا سَاعاتُ الليلِ، فذَهبْنا إلَى فِراشِنا كَي نَسْتريحَ، فمَوعدُ الشُّروقِ هو تَوقيتُنا، ولم يكُنْ مِن المَعْقولِ أنْ أتحرَّكَ بِدونِ أنْ تطأَ قَدَماي علَى الشَّاطِئِ وأُبلِّلَهُما بِماءِ البحْرِ.

اسْتَيْقَظْتُ باكِرًا قَبْلَ طُلوعِ الشّمْسِ، وذَهَبْتُ إلَى الشَّاطِئِ أسيرُ علَى تِلكَ الرِّمالِ النّاعِمَةِ الَّتي خالطَتْها مِيَاهُ البَحْرِ، وجَعلَتْها لَيِّنةً سَلِسَةً، فوَجَدتُّ كُرْسِيًّا فجَلَسْتُ علَيْهِ ومَدَدْتُ قَدَمي مُسْترْخيًا عليْهِ؛ مُطلقًا لمُخيِّلتي العَنانَ أُراقبُ طُيورَ الصّباحِ وتَغريدَها، الَّتي ما أظنُّها تَنامُ في هَذا الجوِّ

المُفعمِ بالحَياةِ. وبِصَوتِ البَحرِ ومَوجتِهِ الهادِئة تارَةً والهائِجة تارَةً أُخرَى، سَبحتُ مَع حَصواتِهِ فمَا أفاقَنِي غَيْرَ صَوْتِ امْرَأةٍ عَجوزٍ.

ألْقَتْ عليَّ تَحيَّةً بِلُغَتِها الإنْجِليزيَّةِ فرَدَدتُّ عَلَيْها مُتلَعْثمًا ووَقَفْتُ لِتحيَّتِها، وكانتْ تُريدُ مَزيدًا مِن حَديثٍ ولكِنْ لُغَتِي لَم تُسْعِفْنِي أكْثرَ مِن بِضْعِ كَلِماتٍ، كانتْ كَفيلَةً أنْ تُخْبِرَها بِأنَّ الحِوارَ انْتَهَى.

ولكِنْ إحْساسُنا واشْتراكُنا في الاسْتِمْتاعِ بِنَسائمِ الصَّباحِ هو ما جَعَلَها تَمْكثُ مَعي علَى رَطباتِ الرِّمالِ؛ فقَدْ تَعَجَّبْتُ مِن تِلكَ العَجوزِ الهَارِمةِ الَّتي فارَقَتْ فِراشَها صَباحًا وجاءَتْ تَسْتَمْتِعُ بِالهُدوءِ النَّفْسِي!، ويَبْدُو أنَّها نالَتْ مُرادَها ولكِنَّها بِالمُقابِلِ أفْسَدَتْ عليَّ انْسِجامِي وهُدُوئِي، وزادَتْ مِن تَوتُّري بسَببِ ضَعْفِ لُغتي.

وبعْدَ قليلٍ قامتْ وانْتفضتْ سَيراً علَى الرِّمالِ، وواكبَ مُغادَرتَها صَوتُ الفنِّيّ يُنادِي أيا (نَبيل) هلُمَّ فالعرَبةُ جاهِزَةٌ لِرَحِيلِنا؛ فلَوَّحْتُ بِذراعيّ أنِّي قادمٌ وسِرْتُ نحْوهُ مُودِّعًا تِلكَ الرِّمالَ الرَّاقِدةَ وتِلكَ الشَّمْسَ الَّتي قاربَتْ علَى الاحْتِراقِ، تارِكَها تُذيقُ العَجوزَ تِلكَ الحَرارَةَ.

وألْقيتُ بنَظرتي الأخيرة، فوَجدتُ تِلكَ العَجوزَ مِثلَ الصِّغارِ، تَصنعُ بُيوتًا مِن رِمالٍ، فابْتَسَمْتُ ومَضيتُ في سَيري نحْو العَربةِ، مُودِّعًا قَريتَنا السِّياحيَّة، وتارِكًا رِمالَ البَحرِ للعَجوزِ.

فتاةُ الأحلام

كان هُناكَ شابٌّ وسيمٌ يَفتخرُ بجمالِهِ مُعلنًا تمرُّدَهُ علَى واقعِهِ، راسمًا عالمَهُ في مُخيِّلتِهِ، رافضًا المُثولَ إلَى عَقباتِهِ، مُوجدًا اسْتراحتَهُ عِند كُلِّ شُروقِ شمسٍ بجوار البُحيرةِ، حيثُ يُداعبُ الماءَ شعاعُ الشَّمسِ مُعلنًا انعكاسُهُ بدايةَ فجرٍ جديدٍ، يُصاحبُهُ زقْزقةُ العَصافيرِ مُعلنةً جرسَ قُدومِهِ؛

فهَذا دأبُهُ كُلَّ صَباحٍ مُتخيِّلًا أنَّ هُناكَ فتاةً جميلةً تنْتظِرُهُ خلفَ الوَادي، وتطلُّ عليه مِن بين الأشْجارِ، ورغمَ خيبةِ ظنِّهِ إلا أنَّه يُصِرُّ علَى عادتِهِ، مُؤمِّلًا ومُنتظِرًا، ومثبِّتًا نظرِهِ إلَى تِلكَ الفجْوَةِ بين الشُّجيْراتِ؛ لعلَّ الفَتاةَ تسْتجيبُ لنداءِ لهفاتِهِ، وتخرجُ مُلوِّحةً لهُ بيدِها.

مرَّتْ أعْوامٌ وهو علَى هَذا الحالِ، يُداوِمُ القُدُومَ وهي لا تَرُومُ؛ ولرُبَّما نازعَتْهُ فِكْرةُ أنْ يَذهبَ هو إليها كي يسْتعجلَها أو يضعَ حدًّا لانْتظارِهِ ولكنَّ كبْرياؤهُ منعَهُ؛ فبرَحَ في مَكانِهِ مُنْتظرًا.

حتَّى إذا ما خيَّمَ الظَّلامُ، وكَسَى الليلُ النَّهارَ، ورحلتْ الشَّمسُ مُعلنةً انتهاءَ يومِهِ، ركضَ نحْوَ بيتِهِ آخذًا استراحةً مُستلقيًا علَى سريرِهِ بعدَما أكلَ وشرِبَ؛ مُغلقًا بابِ منزلِهِ فاتحًا لخيالِهِ العنانِ ولأفكارِهِ المدَى.

مُتسائلًا لنفسِهِ:

هلْ سَتصيرُ أيامي أضغاثَ أحلامٍ؟، أم يَنالُها الحظُّ وتُصبحُ حَقيقةً وتَنْتفِضُ عَنها الأوهامُ؟. وهلْ أعودُ مرةً إلَى منْزلي وأجدُ فتاةَ أحلامي أم كلُّهُ مِن عبثِ أفْكاري؟.

تشابكتْ أفكارُهُ وتنازعتْ حتَّى ضاقتْ عليها الأنسجةُ الدِّماغيَّةُ، فأصابتْهُ بصُداعٍ حتَّى رفقَ به النُّعاسُ، وأسْدَلَ السِّتارَ علَى أحلامٍ شِبه أوهامٍ.

وفي صباحِهِ استيْقظَ وكأنَّ جبالَ الأرضِ ونسورَها أقامتْ ليلَها في رأسِهِ، فصارتْ تِلكَ الرَّأسُ حجريَّةً لا تتحرَّكُ، وأفكارُهُ مُشوَّشةً لا تنْفكُّ؛ فاسْتقبلَ يومِهُ بترتيبِ منزلِهِ والاعْتناءِ بمواشيهِ وحلبِها كي يَتسنَّى لهُ شُربَ لبنِها والعيشَ مِن خيرِها.

وبعْد الانْتهاءِ ذهبَ إلَى بُحيرتِهِ مؤمِّلًا للُقْيا فتاتِهِ، وقدْ أنتجَ فكرُهُ وصراعُهُ بالأمسِ أنَّه أخر يومٍ إنْ لَم تأتِ فسوفَ ينزعُ عنه ذَلكَ الإدْمانَ، ويَطردُ هَذه الأوهامَ؛ وكفَى عبثًا بي أيُّتها الأيامُ.

وعِند بُحيرتِهِ في جلستِهِ المعْهودةِ، وأوقاتِهِ المَعدودةِ، ونظراتِهِ المَحسوبةِ لذَلكَ المكانِ بين الشُّجيْراتِ، وبين طرْفةِ عينٍ وانْتباهِها، لَمحَ أحدَهُم يلوِّحُ مِن بعيدٍ.

نظرَ ثمَّ تأمَّلَ ثمَّ قامَ فوجدَ إنسانةً جميلةَ الطَّلَّةِ، غيرَ مَعلومةِ الملامحِ، ذاتَ شعرٍ طويلٍ يرفْرِفُ وكأنَّ الريحَ ما جاءَتْ إلا اسْتجابةً له؛

وهنَّدامُها بريقٌ يخطفُ الأبْصارَ. ملكتْهُ الدَّهْشةُ وتَجمَّدَ في مكانِهِ مُشوشَ الذِّهْنِ مُسْتغربًا حتَّى لوَّحتْ لهُ بيدِها مرةً أخرَى (مُشيرةً أي ائتِ إليَّ)، ذهبَ إليها بخُطواتٍ مُرتبكةٍ يُقدِّمُ خُطْوةً ويُأخِّر أُخرَى مُركِّزًا نظرَهُ عليها (فضولُهُ يقودُهُ أكثرَ مِن مشاعرِهِ).

اصْطدمَتْ قدَماهُ ببعضِ جذورِ الشَّجرِ فنَزَفَتْ دَمًا، لَم يَسْتطِعْ المُقاومةَ فسَقطَ مغْشيًّا عليه لثوانٍ معْدودةٍ، وبعْد الإفاقةِ واصلَ السَّيرَ نحْوها فلَم يجِدْ شيئًا؛ فبحثَ في أرجاءِ المكانِ بجُنونٍ.

حتَّى فوجِئَ بامْرأةٍ عجوز مُبتسمةً(إنْ شئْتَ قُلْ مومْياءٌ عَفَا عليها الزمانُ وتركَ التَّاريخُ ملامِحَ وجهِهَا مُتخشِّبةً وكأنَّها فرْعٌ مِن جِذعِ شُجيْرةٍ) تخشَّبَ في مكانِهِ مِن الذُّهولِ وما لحِقَ به مِن ذُعْرٍ.

قالتْ له:

(بنَظراتٍ ساخِرةٍ، وبصَوتٍ فيه نبراتٌ قاسيةٌ) هلْ خُيِّبَ ظنُّكَ؟.

(فردَّ عليها وفي جسمِهِ رعْدةٌ وفي صوتِهِ بُحَّةٌ) مَنْ أنتِ؟!.

فقالتْ: ألا تعْرفُني؟.

ـ أنا تِلكَ الشَّابَّةُ الجَميلةُ الَّتي كُنتَ تنتظِرُها مُنذَ زمنٍ، ولكن كبْرياؤكَ وعُلوُّكَ صنعَ منِّي إنْسانةً عجوزًا دَميمَةَ الخِلْقَةِ فاسْتمْتِعْ بي علَى أيِّ حالٍ أو اسْتمتِعْ بغرورِكَ أيُّها المغْرورُ الأنانيّ.

صُدمَ مِن قَسْوةِ ردِّها فلَم يَتحمَّلْ جَسدُهُ النَّحيفُ، وسَقطَ أرْضًا مَغْشيًّا عليه لفترةٍ وَجيزةٍ، وعندَ اسْتيْقاظِهِ لَم يجدْ شيئًا حولَهُ ووجدَ غُرابًا فوقَ رأسِهِ يَنوحُ بصَوتٍ قبيحٍ؛

فقال: هَذا نذيرُ شُؤْمٍ، ثمَّ نظرَ إلَى الشَّمسِ وهي تغْرُبُ،

وقال: يبْدو أنَّه كابوسٌ تجاوزَ أحْلامي وأتاني في اليَقظةِ، وأنَّه ليسَ هُناكَ شابَّةٌ ولا عجوزٌ، وما دارَ ما هو إلَّا أعراضَ حُمَّةٍ، فارقَتْني في الصِّغرِ فلاحقَتْني في الكِبرِ.

وتركَ المكانَ نازِحًا إلَى المَدنيةِ كي يشْتريَ بعضَ الأغْراضِ، فوجدَ في السُّوقِ بعضَ الفتياتِ كثيراتٍ هنَّ جَميلاتٍ، مُثيراتٍ هنَّ رائعاتٍ.
(كان لا يدْري أهوَ اسْتكْمالُ حُلمِهِ أم فصْلًا جديدًا في حياتِهِ).
اقْتربَ مِنهنَّ راغِبًا في ارتباطٍ، تعرَّفَ علَى إحْداهُنَّ وهي كانتْ الأكثرَ نظرًا إليه فطلبَ مِنها الزَّواجَ فتزوَّجا في يومٍ وليلةٍ.
وفي ليلةِ الزَّواجِ، قالتْ له: ألا أدُلُّكَ علَى سرٍّ؟.
قال لها (مُتعجِّبًا) : هاتِ ما عِندكِ يا جَميلتي!.
قالتْ: أنا مَن كُنتُ أنْتظِرُكَ طوالَ السِّنين، وأنتَ لم تنظُرْ إليَّ بلْ نظرْتَ لخيالِكَ حتَّى هوَى بكَ.
فقال (مُبْتسِمًا) : نعْم فهمْتُ.
فلرُبَّمَا يَجْمحُ خيالُنا حتَّى نرْفضُ واقِعَنا، ونعيشُ أحْلامَنا وننْسَى أيامَنا.

فَتَى المَاشِيَةِ

عِندَما يَغيبُ قُرصُ الشّمسِ في السّماءِ، ويَعْلو الضَّبابُ في الشّتاءِ، وتَهْطِلُ الأمْطارُ، نَخْتبِئُ خَلفَ الأشْجارِ، أنا وماشيَتي الصِّغارُ، أمّا المَواشي الكِبارُ، فهُم في الكُوخِ (العُشَّة) يَنعَمون بالحِمايةِ مِن تِلكَ العاصِفةِ المُمطرةِ؛ وإنْ كُنّا نَسعدُ بنُزولِ الأمْطارِ لكِن يُخالِطُهُ بعضُ القلقِ مِن جرّاءِ التّبعيّاتِ.

وبَعْدما يَهدأُ المَطرُ وتَسْكنُ الرّيحُ، آخذُ ماشيَتي إلَى البَيتِ كَي أُعاودَهُم في الصَّباحِ الباكِرِ؛ فهذا جَدولُ أعْمالي وهَذا نَمطُ حَياتي. أفْضلُ ما فيها أنّي أقودُ مَن هُم أكْبرَ مِنّي حَجمًا، فأقومُ برِعايتِهِم وحِمايتِهِم مِن سُوءِ الأحْوالِ.
وأمْتعُ ما فيها أنّي أحْصلُ علَى تِلكَ النّظراتِ البَريئةِ، وتِلكَ المُكافآتِ العَظيمةِ مِن حُبٍّ وعَطفٍ مِن هَذه المَخْلوقاتِ الضَّعيفةِ الّتي لا تَسْتطيعُ التّعبيرَ إلّا مِن خِلالِ ألْسنتِهِم، فيُمرِّرُونَها علَى خُصلاتِ شَعْري.

تُرَى أيُّ مَشاعرٍ جَمَعتْنا، وجَعلتْنا نُفْضي بِهذا التَّناغُمِ، رغم أنَّنا مُختلِفون في المَشاربِ والمَآربِ؟. الآن علَى ما يَبدو أصْبحَ الجَوُّ مُلائمًا كَي نَبرحَ المَكانَ ونَذهبَ إلَى البَيتِ بسَلامٍ.

ــ أما زِلْتِ نائمةً هيّا بِنا، حانَ وَقتُ الرَّحيلِ؛

انْتظِري انْتظِري، قبل أنْ تنْهضي احْمليني فَوقَ ظَهرِكِ،

لا تَنظُري إليَّ هكَذا، الأرْضُ كَما تُشاهِدينَها غارقةٌ بالماءِ، ولا أسْتطيعُ السَّيْرَ علَى قَدمي.

ــ يا الله ظَهرُكِ أرْطبَ وأحَنَّ مِن تِلكَ الأرْضِ المُبلَّلةِ بالماءِ، هيّا سِيري، أتَعرِفين كانَ يَومًا مُمتِعًا ولكِنْ عكَّرَ صَفْوَهُ نُزولُ المَطرِ بهذه الطَّريقةِ؛ وأنا أخْشَى عليكِ مِن التَّغيُّراتِ الجَويّةِ.

لكِنْ عليكِ أنْ تُخطِّي بخُطُواتٍ ثابِتةٍ، فالأرْضُ غيرُ مُستقرَّةٍ، فعليكِ أنْ تُوصِّلينا بسَلامٍ فهذه مُهمَّتِكِ؛ أعْلمُ أنَّكِ لا تَفْهمين كَلامي، ولكنَّكِ بلا شكٍّ تَشعُرين به.

ــ ما هَذا يا الله! مرَّةً أُخرَى تِلكَ الجاموسةُ العَنيفةُ، الَّتي تُريدُ النَّيلَ مِنّا وكأنَّنا أعْداؤُها؛ أرْجوكِ أنْ تَبتعِدي عَنها قدرَ الإمْكانِ ولا تُجاريها فنحْنُ نُريدُ أنْ نصِلَ بدونِ خَساراتٍ.

أوَّاه، إنَّها تُسرعُ باتِّجاهِنا، احْترسي يا بَطلَتي.

(وهَذه آخِرُ كَلماتٍ قُلتُها، وآخِرُ نَظراتٍ ألْقيتُها) فبَعْدها حَصلَ التَّلاحُمُ وتَمَّتْ المَلحمةُ.

وكأنَّها كانتْ تُنصِتُ لكَلِماتي وتَسمعُ لِنداءاتي؛ فلَم تَدخلْ المَعركةَ بلْ تَحمَّلتْ كُلَّ الضَّرباتِ والأوْجاعِ كَي تُبقيَني علَى ظَهرِها بدونِ أيّ إصاباتٍ ولكِنَّ جَسدُها المُلطَّخُ بالدِّماءِ والطَّعناتِ لم يَستجِبْ لأُمْنيّاتِها فسَقطتُ مِن فَوقِها مَغشيًّا علىّ، بعدما ارْتطمتْ رأْسي بالطِّينِ المُبلَّلِ بماءِ المَطرِ؛ وذَهبتُ في غَيْبوبةٍ قَصيرةِ الأجَلِ، ولكنَّها كانتْ بعيدةَ الأمَدِ.

فَتحتُ عَينيَّ فوَجدتُها غارقةً في بُحورِ دِمائها، تَتلفَّظُ أنْفاسَها الأخيرةَ. أسْرعتُ نَحوَها ناظِرًا علَى كَمٍّ الطَّعناتِ فلَم تُسْعفْني مَعلوماتي الرَّقميّةِ علَى إحْصائِها و كأنَّ كُلَّ طَعنةٍ تُسجِّلُ بها نُقطةَ وَفاءٍ لي.

انْهرتُ باكيًا بعدما نَظرتُ في عَينَيها التي تُودِّعُني راضيَةً فَرِحةً، رغم جُلِّ الطَّعناتِ الَّتي أخذَتْها، وحدَّثتْني نَظراتُها بكَلماتٍ لا يُفْهمُ مَعْناها ولكِنْ يُحسُّ بِمَدْلولِها، قائلةً:

سَلامتُكَ يا عَزيزي كانتْ غايةً، ولستُ بضَعيفةٍ كَي أُهْزمَ ولكِنَّ ضَعْفي صارَ قُوّةً عِندَما حافَظتُ عليكَ، فحَمدًا علَى سَلامتِكَ؛ رَافِقةً مَع سَلامِها لَعْقةً مِن لِسانِها مُصافِحةً لي ومُودِّعةً؛ وكأنَّها لَم تمُتْ ولَم تُغادِر الحَياةَ حتَّى تَتأكَّدَ مِن نَجاتي وأنَّ مُحاوَلاتِها نَجحتْ.

أرَدتُّ أنْ أضِعَ رَأسَها في حِجْري ولكنَّهُ كانَ ثَقيلًا ولكنَّ هَمّي وحُزني فاقَهُ ثِقلًا.

ومَرَّ عليَّ رَجلٌ لا أعْرفُهُ ولكنَّه رَأى المَشْهدَ وتَعرَّفَ عليَّ وأخَذَني علَى ناقتِهِ مُوَصِّلَني إلى داري؛ وأنا بين غَيْبوبةٍ ونُعاسٍ، خالطَهُما تَعبُ الأنْفاسِ.

واسْتيقظتُ في صَباحي في تِيهٍ، لا أدْري ما مَرَّ بي كابوسٌ أم واقِعٌ مَدْروسٌ؟.

طَمأنَني أبي علَى حالي، وهَوَّنَ عليَّ مِن ثِقلِ ما جَرَى.

مُحدِّثَني: خَسارةُ المالِ أهْونَ مِن سَلامتِكَ يا ابْني، وعَودتُكَ إليَّ بالدُّنيا وما فيها. وكأنَّهُ اخْتزلَ الواقِعةَ ماليًّا لا مَشاعِريًّا !.

فحتَّى هَذه اللَحظةِ لا اسْتوعِبُ ما جَرَى، أهو حَقيقةٌ أم خَيال؟. فتَسلَّلتُ وهَرعْتُ إلَى حَقلي مُسرعًا الخُطَى، بحثْتُ في الأرْجاءِ وتَلمَّستُ المَكانَ كَي أجِدَها ولكنَّ الواقِعُ صَدمَ العقْلَ وأجْبرَهُ علَى تَقبُّلِ الحَقيقةِ. فثارَ جُنوني ورُحتُ أُقلِّدُ صَوتَها بين الأشْجارِ حتَّى انْهرتُ مَكاني وسَقطتُ علَى رُكْبتيَّ مُنكِّسَ الرَّأسِ في حُزنٍ شَديدٍ؛ يُرافِقَهُ صَوتُ الرَّعدِ وتُصاحِبُهُ ذرّاتُ المَطرِ، فاخْتلطَ صَوتي بالرَّعدِ واخْتلطتْ دُموعي بالمَطرِ. فلا أدْري كيف

أُفرِّقُ بينهما؟!.

وأنا في هَذه الحالةِ، فُوجِئتُ بِمَن يُداعبُ خُصلاتِ شَعْري وخَدَّيَّ بِلسانِهِ مُجفِّفًا الماءَ ومُهوِّنًا عليَّ. نَظرتُ فإذا بابْنتِها الصُّغرَى أتتْ إليَّ بعدما سَمِعتْ الصَّوتَ وحَسِبتْهُ صَوتَ أمِّها، نَظرتُ إليها باشْفاقٍ وبادلَتْني شُعورَها بالحِرمانِ.

فأخذْتُها مِن هَذا البَردِ القارسِ، وأدْخلتُها الكُوخَ (العُشَّة) وجَمعتُ عيدانَ الأخْشابِ مُولِّعَها بثِقابٍ كَي أُدْفءَ المَكانَ؛ فتِلكَ اللَيلةُ لَن تَنْعمَ الصُّغرَى بالحَنانِ، فلقَد فَقدتْ أمَّها كَما فَقدتُها للأبدِ.

واسْتمرَّتْ النّيرانُ مُشْتعِلةً طُوالَ اللَيلِ، صَوتُها يُؤْنسُنا أكْثرَ مِن حَرارتِها، حتَّى انْكشحَ الظَّلامُ وتفتَّحتْ الغُيومُ، وطَلعتْ الشّمسُ مُعلنةً بدايةَ يَومٍ جَديدٍ، بصُحْبةِ رَفيقٍ جَديدٍ.

سَعْدُ الوَفِيّ

بين سُنْبُلاتِ الذُّرةِ المُتَساقِطةِ، وحَشائِشِ الأرْضِ الفاسِدةِ، يَسْتَمْتِعُ سعْد بالنَّوم، ويقْفِزُ قَفزاتِهِ المَعْهودةَ المُضْحِكةَ. ولا أدْري مِن أينَ حَصَلا عليْهِ أخِي وأُخْتي، فلقَدْ كانتْ هوايَتُهُما جَلْبَ الكِلابِ الصَّغيرةِ المُتَشرِّدةِ، الَّتي لا صاحِبٌ لَها والاعْتِناءَ بِها. وإنْ لَم يوجدْ ذَهَبا إلَى النَّخْلِ فهُناكَ تَضعُ أمَّهاتُ الكِلابِ صِغارَها، فيَقومان بسَرِقتِها، وبعْد نَجاحِهِما يَتعهَّدان بالرِّعايةِ، وحُسْنِ المُعامَلةِ مِن مأْكلٍ ومَشْربٍ.

وهَكَذا حَظَى سعْد برِعايةٍ فائِقةٍ، وقَلبيْن يَتقاسَمان مَحبَّتَهُ، كَما يَتقاسَمان اللُّقيْماتِ مَعهُ، المَمْزوجةَ باللَبنِ الذي ابْتاعاهُ ببعْضِ نُقودِهِما المَدْرسيَّةِ. ولا أدْري هل عَوَّضاهُ عَن رعايةِ الأُمِّ وكَنَفِها، أمْ لا ؟!. ولكِنَّ ابْتسامتُهُ وقَسَماتُ وَجْهِهِ كانتْ مَرحةً دَوْمًا؛ تَشْرقُ كشُعاعِ فَجْرٍ أبَى الظُّلْمةَ وخَرجَ ينْثُرُ الأملَ والنُّورَ علَى مَن حَوْلَهُ في ذَكاءٍ وأَدبٍ، كَفيلَيْن ليَجْعلا لهُ تَأْثيرًا علَى الآخَرين مِن خِلالِ ضَحِكةٍ، وفتْنةٍ تَحرِّكِ ذَنَبِه، وقَفَزاتِهِ المَرِحةِ، فلا تَمْلِكُ حيالَهُم إلَّا أنْ تُحِبَّهُ بلْ وتَعْشقَهُ.

وهَذا دَأْبُ صِغارِ الحَيواناتِ: الرَّشاقةُ والليُونةُ والخِفَّةُ في الحَركةِ؛ فلا تَجِدُ مَخْلوقًا يُعْطيكَ مِثْلَ ما يُعْطيكَ هَذا الكَلبُ الصَّغيرُ، وأنَّى له أنْ يُوجَدَ ؟!.
فلقَدْ يغْضبُ مِنكَ أخُوك، ويَنْأَى بعيدًا عنْكَ لأتْفَهِ الأسْبابِ!، ويُجْعلُ الخِصامُ بينكُما مُرحَّبًا؛ ولكِنَّ سعْد لا يُطيقُ صَبرًا أن يُبْعدَ عنكَ، فتَجِدُهُ يُسْبِغُ عليْكَ الوَفاءَ والعَطْفَ، ويَضُمُّكَ بالحَنانِ واللُّطْفِ. وليسَ مُقابِلُ هَذا، سِوَى لُقْمةِ عَيْشٍ ووِسادةٍ، ومَحبَّةٍ ورِعايةٍ.
وإذا ما غِبْتَ عنْهُ يفْتقِدْكَ ويُثارْ جُنونُهُ، وقَدْ تَتعجَّبُ لذَلِكَ!،
خاصَّةً عِندَما يَذْهَبا أخَوَيًّا إلَى المَدْرسةِ، ويتْرُكاهُ ساعاتِ الصُّبْحِ الطَّويلِ، ويقْبِلان عليْهِ بعدَ الظَّهيرَةِ، حامِلَيْن مَعهُما الغَداءَ للأبِ ولصاحِبِهِما الوَفيّ.
فما أنْ يلْقاهُما حتَّى يَشِبُّ بجُنونٍ ولا يُوقِفُهُ حاجِزٌ، حتَّى يقِفُ أمامَهُما، يَتمسَّحُ بأرْجُلِهِما، ويُداعِبُهُما بذَنَبِهِ. ويُمْطِرُهُما بمَشاعِرِهِ. لَم أكُ حِينَها أسْتطيعُ أنْ أُفَسِّرَ تِلكَ الحَفاوَةَ، ولكِنْ تُعْجبُني تِلكَ الاسْتِجابةَ؛ فما أجْملَ أنْ تَتلألأَ عَيْنان وتَضُمُّكَ بابْتِسامةٍ!.
فلقَدْ كانَ بِهِ سِحرٌ، ولَديْهِ فِطْنةٌ يأْثرُ الجَميعَ ليَنالَ إعْجابَهُم، ويُقدِّرُهُم ليَنالَ عَطْفَهُم!. حتَّى أبِي الَّذي أبَى عليْهِ طَوَّعَهُ، وجَعلَهُ يَكِنُّ لهُ احْترامًا ومَحبَّةً، وأرْغمَهُ علَى السّرورِ بِهِ والإشادَةِ لهُ.
وفي يَومٍ حارٍ عَلتْ حَرارتُهُ، وغابتْ نَسَمتُهُ، واشْتابَ قَيْظُهُ، وَقْتَ الظَّهيرَةِ، خَلعَ أبِي مِعْطفَهُ كالمُعْتادِ (السُّديري) وتَركَهُ تحتَ شَجرةِ الرُّمّانِ كَي يُباشِرَ عَملَهُ بانْتِظامٍ. حتَّى إذا ما انْتهَى مِن عَملِهِ وأرْخَى جَسدَهُ، ألْقَى نَظْرةً علَى رِدائِهِ فما وَجدَهُ!، بَحَثَ في المَكانِ فلَم يجِدْ غيرَ سعْد يقِفُ بعيدًا يَلْوِي ذَنَبَهُ، ويرْمُقُهُ بنَظرِهِ، شَكَّ في أمْرِهِ، وأنَّى لهُ أنْ يَفْعلَ؟. أَلسُوءِ مُعامَلتِي وتأْديبًا لي!. فلَم يجِدْ أبِي حِينَها سِوَى أنْ يُعامِلَهُ بلِينٍ ويَتلطَّفُ إليْهِ، ويُناشِدُهُ كصَبيّ ناضِجٍ، أنْ يَجْلِبَهُ إليْهِ، سُرَّ سَعْد بالمُعامَلةِ، وحَرَّكَ ذَنَبَهُ مُطْمئِنًّا، ففعْلتُهُ نَجحَتْ، وسَجَّلتْ لهُ نِقاطًا، فما عليْهِ الآن سِوَى

جَلْبِ الرِّداءِ، ليَسْتمْتِعَ بنَظراتِ الأبِّ، وهي تَرْمُقُهُ بالإشادَةِ والإعْجابِ. فانْطلقَ كأنَّهُ فَهِمَ لُغةَ الأبِ فغاصَ في إحْدَى النَّواحِي المَزْوعةِ بشَجرةِ الذُّرةِ، فلقَدْ خَبَّأهُ هُنالِكَ في حُنْكَةٍ وغَفْلةٍ؛ فالْتقَطَهُ وجاءَ بهِ يجُرُّهُ أرْضًا حتَّى ألْقاهُ أمامَهُ في تَعجُّبٍ وابْتِسامةٍ مِن الأبِّ الَّذي شَلَّهُ المَوقِفُ ذُهولًا!, وأُعْجبَ بهِ أيّما إعْجابًا!، وسمَّاهُ سعْدًا؛ ليسْعدَ بعدَ الآن، فلقَدْ مَلكَ الجَمْعَ، مِن أبٍ وأخَواتٍ وأُمٍّ.

فيَقْضِي نَهارَهُ مَرحًا معَ الأبِ ضُحًى وصَباحًا، ومع الأخَواتِ ظُهرًا وعِشاءً؛ فيَرْقُبُ الطِّفْلَيْنِ مُتلهِّفًا عِندَ كُلِّ ظَهيرَةٍ حتَّى يأْتِيا إليْهِ، وما إنْ تَأخَّرا عليْهِ ذاتَ مرَّةٍ حتَّى هَرِعَ مُسْرِعًا يَجُوبُ الطَّريقَ الزِّراعيّ إلَى أنْ وَصلَ للجِسْرِ العُمومِيّ للمُشاةِ والعَرَباتِ، وفي انْطِلاقَةٍ لَم ينْظُرْ حِينَها يَمْنةً أو يَسْرةً؛ فلقَدْ أحْرقَهُ الشَّوقُ علَى غيرِ ذي عادَةٍ.

وما إنْ وَطأتْ قَدَماهُ الأسْفَلْتَ حتَّى دَهَستْهُ شاحِنةٌ كَبيرةٌ، فأوْسَدتْهُ قَتيلًا؛ فلَم يَنْطِقْ حِينَها غيرَ صَرْخةٍ كانتْ كَفيلةً أنْ تُخْبِرَ و تُعْلِنَ لتِلكَ القُلوبِ المُعَلَّقةِ بهِ، أنَّ حَياتَهُ أصْبحتْ ذِكْرَى وَليدَةً.

سُمِعتْ صَرْخَتُهُ مُدوِّيةً، وقَدْ كانا الطِّفْلان مُقْبِلَين، فأسْرَعا إليْهِ في كَآبةٍ طَمَستْ وُجوهَهُما، ولفَّتَها بالسَّوادِ؛ يُلْقِيان النَّظْرةَ الأخيرةَ بعُيونٍ غيرِ قادِرةٍ علَى تجْميعِ أشْلائِهِ المُبعْثَرةِ مِن ضَغْطِ إطارِ الشَّاحِنةِ المُسْرعةِ، وما اسْتقرَّ مِنهُ صارَ جُزءًا مِن دِماءِ الأرْضِ الغارِقةِ.

انْتحَبا الطِّفْلان، وعَلتْ أصْواتُهُما بالبُكاءِ وَسطَ أشْلاءِ صَديقِهِما الوَفِيّ؛ الَّذي أحْرقَهُ الشَّوقُ فلَم يجِدْ إلَّا المَوتَ سُقْيةً لهُ. فلطالَما أسْعدَهُم بقَفَزاتِهِ المَمْلوءةِ بالحَيويَّةِ، وتحْريكِ ذَنَبِهِ بالسَّلامِ والتَّحيَّةِ، الآن خَتمَها بخاتِمةٍ كَفيلَةٍ بأنْ تَمْحوَ ضَحِكاتِ السِّنين، وتُؤرِّخَ يَومًا لتَنْسكِبَ فيها الدُّموعُ والأنِين.

الضُّفْدعُ صَديقِي

لا أدْري كَيف قابَلتُهُ أوَّلَ مَرةٍ ولكِنْ قَفازاتُهُ البَهلوانيّةُ جَذبتْني نَحوَهُ، كُنتُ أخْتبئُ خَلفَ سيقانِ شَجرةِ المَوزِ أُراقِبُهُ، ورَغم لَونِهِ المُسودّ وشَكلِهِ المُنفِّر إلَّا أنَّني كُنتُ أسْتمتعُ بِمراقبتِهِ؛

ولا يَمنعُني عنْه سِوَى دَعواتِ أبي للغَداءِ، فألْتهمُ تِلكَ الوَجبةَ المُكوَّنةَ مِن بعضِ الجُبْنِ القَديمِ، ورَقائقٍ مِن الخُبزِ الرّيفيّ الأصيلِ، مُختلِطةً بالخُضرواتِ الطّازجةِ الَّتي اقْتلعْناها مِن حَقلِنا كالفُلْفُلِ والجَرجيرِ والطّماطِمِ؛ فألْتهِمُها سَريعًا وأُكْملُ مُشاهَدتي لِذَلكَ الضُّفدعِ الَّذي قَضَى قَيلولتَهُ تحتَ ظِلِّ شَجرةِ المَوزِ بطِينتِها الرَّمليّةِ الرَّطبةِ، فهَذا مَسْكنُهُ وهَذه بِيئتُهُ الشّبهُ مائيّة.

فتِلكَ فَقَراتي اليَوميّةُ ما بين مُشاهدةِ عُروضِهِ ونِداءاتِ والِدي إمَّا للطَعامِ أو للذِّهابِ لِلبَيتِ. وفي بَيتي وعلَى مِنْضدَتي تَدورُ بِمُخيِّلتي صُورُ قَفَزاتِهِ والعُروضُ البَهْلوانيّةُ الَّتي قامَ بأدائِها، وفي اليَومِ الَّذي يَحرمُني أبي مِن الذِّهابِ للحَقلِ يَكونُ سِجنًا بالنِّسبةِ لي، فأنا أكْرهُ الفَصلَ الدِّراسيّ مِن عامي الثَّاني الابْتدائي لهَذا السّببِ لأنَّه يَحولُ بيني وبين مُشاهدةِ ومُتابعةِ ضُفْدعي الصَّغير.

وفي يَومِ الإجازاتِ أذْهبُ إلَى حَقْلي مَجرورًا باللَهفاتِ؛ تَطلعُ مِن عَيني الإشْراقاتُ، اسْتقبالًا وتَرحيبًا بصَديقي السَّيد البَهْلوان.

وذاتَ مَرّةٍ ذَهبْتُ إليهِ في لَهفةٍ كعادَتي، فوَجدتُهُ مُمدَّدًا، آخِذًا اسْتراحتَهُ مُنسَجمًا في اسْترخائِهِ، فعَرفتُ أنَّه مِثلي في إجازةٍ، فانْتابتْني المَرارةُ؛ فما بَقِيَ لي غيرَ سويْعاتٍ أوَدِّعُ ما جِئتُ إليهِ.

وصَديقي يَغُطُّ في نَومِهِ يا لَلخَسارة؛ قُمتُ برَمْي بَعضِ الحَصواتِ عليهِ كَي أوقِظَهُ وأجْعلَهُ يُقدِّمُ عَرضَهُ ويَتْركُ النَّعَساتِ، ولكِن كَسلُهُ كانَ أشدَّ عليهِ مِن الحَصواتِ، فكانَتْ تَحرُّكاتُهُ بَطيئةً وعَرضُهُ سَمِجًا ثَقيلًا.

فزِدتُ عليهِ مِن الحَصَى كَي يَنْشطَ ويَدبَّ في جَسدِهِ الانْطِلاقُ لكِنَّ حَصواتي أخْطأتْ، فأصابتْهُ في رأسِهِ فارْتدَّ قَتيلًا، يَلفُظُ أنْفاسَهُ الأخيرة.

فصُعِقتُ مِن جرّاءِ تِلكَ المُصيبةِ، ماذا ارْتكَبتُ؟! وأسْرعتُ إليه مُنشدًا أيا صَغيري لَم تَكُنْ نَواياي أنْ أقْتلَكَ بلْ أردتُّ أنْ تُمتعَني بحَركاتِكَ البَهْلوانيّةِ؛ أوّاهُ مِن فِعلَتي يالَحَسْرتي، ماذا فَعلتُ بصَديقي؟ .

أردتُ مِنكَ الاسْتمتاعَ فإذا بي أُفْقدُكَ الحَياةَ ولكِن إنْ دُمِّرتْ حَياتُكَ، سَأُنعِمُ مَوتَكَ، فلَن أجْعلَ النَّملَ والحَشراتِ الزّاحِفةَ تَنالُ مِن جَسدِكَ بلْ سوف أُكْرِمُكَ وأدْفنُكَ دَفْنةً تَليقُ بكَ؛ بوَرقِ التّينِ أُكفِّنُكَ، وبرَطْبةِ وَرقِ المَوزِ أحْميكَ، وبسَعفِ النَّخلِ أرْبطُكَ، وفي حُفْرةٍ رَطِبةٍ بجوارِ حَجرٍ مُصلَّاي أضَعُكَ، فهَذا مَكانُكَ وعَلامةُ مَقامِكَ؛ فأنْثرُ علَى قَبرِكَ الرَّيحانَ،

وأعاوِدُهُ كُلّما أذِنَ الرَّحْمن.
فأرْجو مِنكَ يا صَديقي تَقبُّلَ عَزائي، فلا أدْري أيّامي بعدَكَ كيف تَصيرُ ؟، فسَلامٌ عليكَ حيًّا ومَيتًا.
وبرِفْقةِ سَلامي تُودِّعُ الشّمسُ الوُجودَ مُعلِنةً خِتامَ يَومٍ كَئيبٍ، جَعلْتُ مِنهُ عَزاءً ثَلاثةُ أيّامٍ حِدادٌ، لا أذْهبُ فيها إلّا إلَى البَيتِ وأعاوِدُ في الصَّباحِ وكُلّي أَلَمٌ وجِراحٌ؛ أنْبِشُ قَبرَهُ في سُكونٍ، وأُخْرِجُ جُثّتَهُ في خُشوعٍ كَي أطْمئنَّ عليهِ، وأجْلسُ مَعهُ حتَّى تَغيب الشَّمسُ فأُسْكنُهُ داخِلَ قَبرِهِ، وأسْكبُ عليهِ التُّرابَ، هَكذا كُلَّ يَومٍ أُخْرِجُهُ كَي أراهُ وأتَلمَّسَهُ ثمَّ أضعَهُ؛ فلا أدْري لِماذا كُنتُ أفْعلُ تِلكَ الحَركاتِ الصِّبيانيّةَ؟. أمِن أجْلِ اشْتياقي ولَهْفتي أم رجاءً أنْ تَدبَّ فيه الحَياةُ؟ حتَّى طَرأتْ عليهِ التَّغيُّراتُ الجَسديّةُ فأصابتْهُ بالعَفنِ فحالتْ بيني وبينه، فتَركتُهُ يُلاقي مَصيرَهُ ووَدَّعتُهُ للأبدِ. ونَظَرتُ مُقلِّبًا وَجْهي في السَّماءِ لعلَّ لَونها الصّافي يَمسحُ كآبَتي، فإذا بي أرَى أسْرابَ الطُّيورِ تُقدِّمُ عُروضًا، فشَغلَني جَمالُها ورَشاقتُها عمَّا أنا فيهِ، فقَدْ سَلّتْني حتَّى أنْستْني، وعَوَّضتْني حتَّى ألْهتْني.
ونَاداني أبي بالرَّحيلِ، فتَركتُ ضُفْدعي الصَّغيرَ خارجَ قَبرِهِ، مُلقيًا عليهِ النَّظرةَ الأخيرةَ، فلقدْ تركتُهُ وَجبةً خَفيفةً لِتلكَ الطُّيورِ البَريئةِ، شُكرًا وتَقْديرًا لعَرضِها المُمْتع، وأيضًا كَي أُطهِّرَ جَسدَهُ العَفنِ ويَذوبَ في هَذه الأمْعاءِ الَّتي تَسْبحُ في جَوِّ السّماءِ؛ فلقَدْ حَرمتُهُ الحَياةَ البَريّةَ، فلأُعوِّضُهُ أنْ يَكونَ ذرّةً تَطيرُ كُلّما هَبَّتْ الرِّيحُ أو سَكنتْ.

خَسارَتي تَعنِي تَحطيمَكِ

خَائنةٌ لا صاحِبٌ لَها، تَرتمي بِحِضْنِ مَن يُرحِّبُ بِها، لا تَعرِفُ الوَفاءَ لا ورَبُّ السّماءِ. تُراها مُتجمِّدةَ المَشاعِرِ رَغم أنَّها مُتحرِّكةٌ بِأنْغامِ المَضارِبِ، تُسجِّلُ نُقطةً لكَ أو عليكَ لا تكْترث بِمَن الفائزُ أو الخاسِرُ؛ إنَّها كُرةُ تِنسِ الطّاوْلةِ.

أطْلقتُ عليها هَذا الاسْمَ (خَائنة) ولستُ بِنادِمٍ، فهي اليَوم في أرْضي وتحتَ كَنفِي وبعْدُ ثوانٍ عليَّ ثائرةً، ورَغم تَعلُّقي بِها غير أنَّها كَسرتْ كُلَّ الحَواجزِ، مِن إخْلاصٍ ووَفاءٍ لا تُبالِي.

تُراني أخْطأْتُ بِتَقديري أم هَذا طَبعٌ فيها ساري؟. عاشَرتُها حَوالي (١٥ سَنة) فلَم أكُ بِقادرٍ علَى إلانةِ طَبعِها ولكِنِّي تَعمَّقتُ في فَلسفتِها وطَوَّعتُها لخِدمتِي وعَوَّدتُها علَى مَضربِي وحَركاتِ يَديَّ، حتَّى أجادتْ، وصِرتُ بِذلكَ مُروِّضًا لَها.

فكُنتُ أصْطحِبُها مَعي في كُلِّ مَكانٍ في مَلابِسي وعلَى سَريري تَنامُ، بِألْوانِها البُرتقاليّةِ والبَيضاء، تَسرحُ وتَنعمُ بِمساحاتِ طاوْلَتي الخَضراء؛ قَضتْ سِنين بِرِفْقتي فلَم يَكُنْ بيننا تَطفُّلٌ أو رَغَّاء.

ولَم أكُنْ أعْلمُ أنَّ خِيانتَها تَصلُ إلَى حدٍّ تَهدِمُ فيه مُستقبلِي الرِّياضيّ أو تَنالُ مِنِّي، وأنا مَن كُنتُ بِها حافِلًا وبِها مُغرمًا فتّانًا، فكانتْ مُشكلتِي أنَّ ثِقتي بِنفْسي أنْسَتْني طَبعَها الغدَّار، وأنَّه لا عَزيزٌ لَديها ولا شَفيعٌ يُطاعُ.

وجاءَ يَومُ الكاشِفةِ حين تُسفرُ الوُجوهُ المُتلوِّنةُ عَن طَبائِعِها الدَّاكِنةِ؛ واقْتربتْ الجَولةُ الأخيرةُ مَع خِصْمي، فاسْتخدمتُ حِيَلي مُدوِّرًا تِلكَ الكُرةِ علَى حافَّةِ الطّاوْلةِ كَي تَخدعَهُ وتُسجِّلَ انْتصارًا ولكِنَّها تَركتْ الطّاوْلةَ وارْتطمتْ بِالأرْضِ مُسجِّلةً نُقطةً عليَّ في مَشهدٍ مَهيبٍ تَسقطُ فيه الأقْنعةُ الزّائفةُ، وتَظهرُ بِه الحَقائقُ النَّاصِعةُ.

وبَقِيَ لِخِصْمي ضَربتُهُ الأخيرة، فإمَّا أنْ تُثبتَ لِي أنَّها وَفيّةٌ مُخْلصةٌ وتُساعِدُني وتَبقَى لِي حاميةً أو تُنْهي ما بيننا وتَكونُ القاصِمةَ.

وجاءَتْ ضَربتُهُ ولَم تَكُ ذا قُوَّةٍ ومَهارة، بِقَدرِ ما أعانتْهُ تِلكَ الغدَّارة؛ فعِندما ضَربَها بِلين، جاءتْ إليَّ و بِها الحَنين، في ثَوبِها الأبْيض الرَّصين، في هُدوءٍ وبَسمةٍ تُشعُّ نُورًا؛ ولَم أعْرفْ حينها،أنَّ وَراءَ هُدوئِها خُدعةً تَتسبَّبُ في خَسارتِي، فما إنْ لَمستْ مَضربِي حتَّى وَثبتْ مِنه خارِجةً عَن الطّاوْلةِ لِتُعلنَ فَوزَ خِصْمي وتُسجِّلَ النُّقطةَ عليَّ.

فلَم يَهزمْني الخِصمُ بِقدرِ ما تَواطأتْ مَعهُ الكُرةُ الَّتي خانتْ، بِعِشْرتِنا هانتْ؛ فلا بِمَودةٍ اسْتمرَّتْ غير أنَّها بِقلْبي أضرَّتْ، ولَم يُكُنْ بِيديَّ حينها إلَّا كَسرَها وتَحطيمَها بِقدميَّ؛

وهَذا أخرُ مَشهدٍ بيننا، وانْتهتْ عِشرتُنا بِطَلاقِها.

فهي أفْسدتْ مَهاراتِي، وأنا أنْهيتُ مَسيرتَها في حَياتِي.

فُسْتاني الجَديد

بجامِعةِ القاهِرةِ في سَنتي الثّانيَةِ، وكأيّ فَتاةٍ تَبحثُ عَن أرْقَى الأزْياءِ وأجْملِها؛ فكُنّا نَهتمُّ بمَلابِسِنا أكْثرَ مِن اهْتمامِنا بدِراستِنا ومُحاضراتِنا حتَّى صارتْ الجامِعةُ مُلتقًى لعَرضِ الأزْياءِ وأناقتِها. وأنا كَفتاةٍ مِن الطَّبقةِ المُتوسّطةِ كُنتُ أجدُ صُعوبةً في مُجاراةِ صَديقاتي، كُنتُ أتَلقَّى مِن والِدي المُوظَّفِ بالحُكومةِ بِضعةَ جُنيهاتٍ تَكْفي لمُواصَلاتي ولكِنْ كانَ هَذا واقِعُنا المُؤلِمُ، أنْ تَتحوَّلَ الجامِعةُ العَريقةُ ذاتَ الأُصولِ القَويمةِ مِن مُلتقًى للعِلمِ والمَعرفةِ إلَى مَعرضٍ للأزْياءِ والزّينةِ.

وطالَما رَفضتُ الذّهابَ إلَى جامِعتي بمَلابِسي المُهلْهلةِ، وكُنتُ أصْطدمُ صَباحًا ومَساءً بتَعقيباتِ والِدتي:

_ يا هَناء، لماذا لَم تذْهبي إلَى جامِعتِكِ اليَوم؟.

_ اسْتهلالٌ مُرحَّبٌ مِنكِ يا أمِّي، فقطْ قِمَطْريٌّ (دُولابي) الصَّغيرُ يَحوي فَساتينًا كُثُرًا، فأحْتارُ في اخْتيارِ المُناسبِ لي فيَضيعُ وَقتي، وأتَأخَّرُ عَن مَوعدِ المُحاضراتِ.

_ هَذا ما يَنقصُنا يا هَناء، أنْ أسْمعَ لتُرّهاتِكِ وهَمزاتِكِ. أنتِ تَعلمين حالَنا وكيفَ تَسيرُ أمورُنا المَعيشيّةِ، وإنْ ضِقتِ ذِراعًا فاتْركي الجامِعةَ والْتحِقي بأيّ عَملٍ. فنحْنُ أدْخلْناكِ الجامِعةِ لتَحصُلي علَى العِلمِ والمَعرفةِ والشّهادةِ. وليسَ لتُعايرينا بفَقرِنا وقِلَّةِ حيلتِنا.

_ تَردُّ هَناء قائلةً (بانْفعالٍ شَديدٍ):

ألا تُغلِقي تِلكَ الاسْطوانةَ المَشروخةَ الَّتي تُطنطِنُ في المَكانِ؟.

_ احْترمي نَفسكِ يا بِنت. عِندَما يَأتي والدُكِ سأُخبرَهُ بتَصرُّفاتِكِ الحَمقاءِ هَذه.

_ (بلَهجةٍ تَهكُّميّةٍ): أبْلِغيهِ، ولا تَنسي أنْ تُبلِغيهِ بالمَصروفاتِ أيضًا.

_ فِعلًا قَليلةُ التّربيةِ أنتِ يا ابْنتي.

_ هي مِن إنْتاجِكِ يا أُمِّي.

_ (بنَبرةٍ حَزينةٍ): لقَدْ كَسرْتِي كُلَّ حُدودِ الاحْترامِ بيننا يا هَناء.

(تُغادِرُ والدتُها المَكانَ مُتأثِّرةً فتَرتدي مَلابِسَها، وتَخرجُ مِن البَيت وتَغلقُ البابَ بقُوّةٍ).

_ (تُعلِّي هَناء صَوتَها) قائلةً: إنْ كُنتُم لا تُمهِّدون لنا حَياةً كَريمةً طَيّبةً، فلِماذا أتَيتُم بِنا إلَى هَذه الحَياةِ؛ أللْحِفاظِ علَى النّسلِ أم علَى مُمتلكاتِكُم الخاصَّةِ؟! .

وبعْدها تَذهبُ إلَى الشُّرفةِ مُشاطَّةً غَيظًا ثمَّ تَسمعُ فَتحَ البابِ فتَنظرُ فتَجدُ أباها. يُسلِّمُ عليها:

_ أين أمُّكِ يا هَناء؟.

_ خَرجتْ.

_ خَرجتْ !،أين ولِماذا؟.

_ لا أعْلمُ، فلقَدْ شَبّتْ بيننا مَعركةٌ حاميةٌ بالألْفاظِ.

_ (الأبُ يَتملَّكُ نَفسَهُ مِن الغضبِ) ويقولُ لها: ماذا حَصلَ؟.

فتَروي لهُ أحْداثَ المُشادّةِ .

_ فيَقولُ لها (بصوتٍ حنونٍ): مَعكِ حقٌّ يا ابْنتي في كُلِّ كَلمةٍ قُلتيها لكِنْ ألا تَعلمين أنَّ هذه أمَّكِ؟!، ووَجبَ عليكِ احْترامِها؛ أعِدُكِ بأنَّكِ غدًا ستذْهبين إلَى الجامِعةِ بُفستانٍ جَديدٍ حتَّى إنْ كَلَّفني هَذا بَيعَ بعضَ أعْضائي.

_ (البِنتُ في خَجلٍ): لا لا يا أبي، أعْتذرُ إليكَ علَى تَصرُّفي مَع أمِّي.

_ لا عليكِ يا ابْنتي هَذا حقُّكِ، سأتْركُكِ وأذْهبُ للبحثِ عَن أُمِّكِ.

تَركَها وخرجَ وهي غارقةٌ في دُموعِها وخَجلِها، فلقَدْ نالتْ كَلماتُ أبْيها مِنها أكْثرَ مِن كَلماتِ أمِّها.

وبعْد بِضعِ ساعاتٍ فُتحَ البابُ ودَخلَ أبوها برِفقةِ أمِّها، وما إنْ دَخلا حتَّى قبَّلتْ رَأسَهُما وأيْديهِما ومالتْ علَى قَدميْهِما تَطلبُ العفوَ والغُفرانَ؛ فاحْتضناها وجَلسوا يَأكُلون طَعامَ العَشاءِ الَّذي جَهَّزتْهُ (هَناء) ثمَّ ناموا نَومةً هَنيئةً.

وفي الصَّباحِ فَتحتْ هَناء عَينيْها، فوَجدتْ فُستانًا مُلقًى علَى سَريرِها، فاخْتلطتْ دُموعُ الفرحِ بدُموعِ النَّدمِ.

ونَهضَتْ مِن فِراشِها مُرتِّبةً غُرفتِها بحَماسٍ، مُرْتديةً فُسْتانَها الجَديدَ، مُنْتعِشةً تَمْلؤُها الحَيويّةُ والنَّشاطُ، وخَرجتْ مِن غُرفتِها بأبْهَى زينتِها،

فوَجدتْ أمَّها فقبَّلت رأسَها مُبتسِمةً.
وغادرَتْ كعُصْفورةٍ مُلوَّنةٍ بسُرعةِ البرقِ مُتّجهةً إلَى عَرباتِ المِترو، وكأنَّها عَرباتُ مَلاهٍ وَطأتْها بقَدمِ طِفلةٍ بمَلابِسِ عيدِها البُرتقاليَّةِ الَّتي تُضْفِئُ علَى بَشرتِها البَيضاء لَمسةً وسِحرًا، ماسِكةً كوبًا مِن عَصيرٍ كنَخْبِ فَرحتِها.
جَميعُ الرَّاكِبين نَظروا إليها مُتعجِّبين مِن حَركاتِ جَسدِها وإيماءاتِها الصِّبيانيِّةِ،حتَّى ازْدحمتْ العَربةُ فلَم تُعطِها فُسحةً مِن مَكانٍ كَي تُغرِّدَ بحَركاتٍ فرَفعَتْ كُوبَ العَصيرِ خِشيةً مِن انْسكابِهِ، وظلَّتْ ابْتسامتُها مَرسومةً علَى وَجْهِها.
وفَجْأةً فَرْملَ (المِتْرو) فلَم تَتحكَّمْ بإمْساكِ نَفسِها بسَببِ حِذائِها ذي الكَعبِ العَالي الدَّقيقِ، فمَالتْ واقِعةً، وكانَ هَمُّها ألَّا يَنْسكِبَ الكوبَ عليها فرَفعتْهُ للأعْلَى بَعيدًا عنها، فقامَ بعضُ الرَّاكِبين بمُساعدتِها للنُّهوضِ ولكِنَّهُم وَجدُوها غارقةً في الضَّحكاتِ، فتَعجَّبوا مِنها!.
فقامَتْ فوَجدتْ مُحاوَلتَها نَجحتْ فلَم يَمُسّ العَصيرُ فُسْتانَها ولكِنَّهُ لَم يَسْلمْ مِن بعضِ الأتْربة الَّتي لَحِقتْ به عِند سُقوطِها، فنَزلتْ في مَحطَّةِ جامِعتِها خَجلةً لِما لَحقَ بفُستانِها مِن أتْربةٍ؛ فبَحثتْ عَن تَذْكرتِها فلَم تَجِدْها فذَهبتْ لشُبَّاكِ التَّذاكِرِ لتَقطعَ تَذْكرةَ العَودةِ إلَى بَيتِها كَي تُحسِّنَ فُسْتانَها، مُفكِّرةً ماذا تَقولُ لأمِّها؟.

فتاةُ أبيها

« اخْتاري بيْني أو بيْن أبيكِ « .

كَلمةٌ حَطَّمتْ ذَلكَ الارْتباطَ التَّقْليديّ الَّذي دامَ قُرابةَ الشَّهرِ، وكأنَّها اسْتقالةٌ تَقدَّمَ بها لِينْزعَ عنِّي تِلكَ الآلامَ المُصاحِبةَ لعِراكِنا وعِراكِهِ مع أبي بسَببِ المَلابسِ والخُروجِ، ورؤْيتِهِ لعَلاقتِنا في هَذه الفتْرةِ وتحكُّماتِهِ؛ وكأنَّهُ يَظُنُّ أنَّني تِلكَ الفتاةُ الَّتي ترْضخُ لتهْديداتِهِ.
فلم تكُنْ قِصّةً طَويلةً تِلكَ الَّتي عانَيْتُها. والحَقُّ أنَّ هَذا الشَّابُّ كانَ مِذْواقًا ذا مَكانةٍ، ولكنَّهُ كانَ يريدُ بعضَ الأمورِ الَّتي لا تتَناسَبُ مع عَقْليّةِ والدِي.
وفي يومٍ فجَّرَ مقُولتَهُ مُعلِنًا بها تحدّيًا ناسيًا أنَّ تلكَ المُقارَنةَ خاسِرةٌ .

فهَذا أبي مُنْبِتي ومُنْشِئي تَرعْرعْتُ في كَنفِهِ، وحَلَمْتُ يومًا بعْد يومٍ أنَّ مَن يأتِني يكونُ علَى شاكِلتِهِ؛ فتَحتُ عيْنيَّ فلَم أرَ سِواهُ مِن الرِّجالِ بجانِبي، رَأيتُ فيه مَجامِعَ الرِّجالِ والعطفَ والحَنانَ.

وبعْدها يأْتِي هَذا المُتسوِّلُ حُبًّا وعطْفًا وقُربًا منَّا كَي يطْلبَ منِّي أنِ اخْتاري !، ألا يعلمُ أنِّي ما أحببْتُ الرِّجالَ ولا عرِفتُهُم إلَّا مِن خِلالِ نظراتِ أبي، وما عَشِقْتُهُم إلَّا بعد ما عايشتُهُ، ولَمسْتُ عَطاءَهُ.
وجاءَ اليومُ الَّذي سُطِّرَتْ فيه النِّهايةُ، طالَ حِوارُنا واضِعين حدًّا لعَلاقتِنا.
قال لي: ألَا تظنِّينَ أنَّ أباكِ يُضيِّقُ عَليْنا ولا يَسْمحُ بخُروجِنا، وأنَّه يُقيِّدُ حُريَّتَنا ولا يترْكُنا علَى راحتِنا؟!.
فقلْتُ: هَذا أبي ما يَقولُهُ علَى العَينِ والرَّأسِ، وما دون ذَلكَ فلا أُبالِي بهِ.
أظهرَ كِلانا الضِّيقَ والسَّأمَ فما عادتْ الكَلِماتُ تَرَى حيِّزًا بيننا، ووَسِعَنا الصَّمتُ، صَمتْنا كثيرًا وتكلَّمتْ أعْينُنا وإماءاتُنا الجَسديّةُ، مُعلِنةً أنَّ الفِراقَ وعدمَ التَّوافُقِ هو مَصيرُنا.
وأسْفرَ هَذا الصَّمتُ كلمتَهُ « أنا أو أباكِ «.
تُرَى ماذا تخْتارِين؟. وقبلَ إجابَتِي دارَتْ في ذِهْني تَساؤُلاتٌ، تُرَى ما هَذا المَعْتوهُ؟!،
لم يَسْتطِعْ كسْبَ قلْبي وفُؤادِي، فَشرَعَ يُعلِنُ تحدِّيًا آخِذًا مَكانةً رُغْمًا عنِّي.
أهَذا حبٌّ أم احْتلالٌ زاحِفٌ؟!.
يُريدُ نزْعَ السَّكِينةِ مِن بَيْتي، ناشِبًا الكَراهيَّةَ بين أفْرادِ أُسْرتي. ولَم أجْعلْهُ ينْتظِرُ طَويلًا، وأفْصحْتُ عَن إجابَتي .
فقُلْتُ: ما دُمْتَ تَرَى الأمرَ بين فائِزٍ وخاسِرٍ، فأظنُّ أنَّ أبي هو الفائِزُ؛ سأخْتارُ أبي.

قُلتُها وأنا غيرُ نادِمةٍ، قُلتُها وأنا غيرُ آسِفةٍ، قُلتُها وكرَّرْتُها حتَّى صارَتْ في أشْعاري وبين دَفاتِري، وعلَى جُدْرانِي.

صُعِقَ مِن إجابَتي، مُعبِّرةً حُمْرةُ وَجْهِهِ عَن تِلكَ الصَّفْعَةِ الَّتي تلقَّاها للتوِّ.

قُلتُ لهُ: أيُّ إجابةٍ كُنتَ تتَوقَّعُ؟!،

أَلمْ تقُلْ اخْتاري فاخْتَرْتُ .

بَكَيْتُ كَثيراً بعدَها، ليسَ لفقْدِ هَذا المُتسَوِّلِ بلْ لأنَّه ما عرِفَ مَكانةَ أبي في قلْبِي. وانْتهَى هَذا الارْتباطُ المَسِخُ ولكنْ بقِيَتْ ذِكْرَى تَروقُ لي وتُنعِشُني وتجْلبُ ليَ الفخرَ والعزَّةَ؛ فقدْ سنحَتْ ليَ الفُرْصةُ أنْ أُعبِّرَ عَن مدَى حبِّي لأبي، بكَلماتٍ تُبرْهِنُ علَى عِشْقي لهُ ووَلَعي بهِ.

الفلّاحُ والنجّار

في تِلكَ القريةِ العامِرةِ علَى ضِفافِ النِّيل قُبيلَ بِناءِ السَّدَّ العالي كانتْ مِهنةُ نجَّارِ المَراكِبِ تجِدُ لها رَواجًا بين الفِئاتِ المُسْتوطنةِ، وباقي الأهالي كانوا مُزارِعين، تجْمعُهُم صِلةُ القُرابةِ وتألّفُهُم صِلةُ النَّسبِ.

ولكلٍّ مِن الفلّاحِ والنَّجّار سِماتُهُ المُميَّزةُ وطَبائِعُهُ الفَريدةُ وطريقتُهُ في التّفْكيرِ؛ فتحفُّهُما صِفاتُ الطَّيبةِ والشَّهامةِ، وتَعْلوهُما الجُذورُ المِصريّةُ الأصيلةُ.

كانَ حَسن النجّار يكْبرُ حَسنين الفلّاح بعِشْرين سَنةً ولكنَّهُ يتعدَّاه في التّفْكيرِ وتدْبيرِ شؤونِهِ بملايين السِّنين. أمَّا الفلّاح فكان قليلَ الحِيلةِ ضعيفَ الشَّخصيةِ، لِذا كانَ حَسن النَّجّار بالنّسبةِ إليه مُستشارَهُ ووَزيرَهُ ومُعينَهُ بلْ طمعَ (حَسنين) في أكثرِ مِن ذَلِكَ صِلةٍ تربطُهُما للأبدِ وتوثّقُ علاقتَهُما بالنَّسبِ.

فاخْتارَ أحدَ بناتِهِ كَي يتزوّجَها لا حُبًّا فيها ووُدًّا ولكِن تقرُّبًا إليه وزلفًا، وفي يومٍ فاتحَهُ قائلًا: أريدُ أنْ أكونَ صِهرًا لكَ في أيٍّ مِن بناتِكَ الفُضْلياتِ (وكانَ يَعني أريدُ التّقرُّبَ إليكَ بشتَّى الطُّرقِ). فردَّ عيله قائِلًا: دعْنِي أُشاوِرُها ثمَّ أردُّ عليكَ.

ثمَّ نادَى ابْنتَهُ وقصَّ عليها الأمْرَ، فانْحنَى رأْسُها خَجلًا، فنهرَها بلينٍ، وقالَ: ألا تُجيبين؟. قالتْ: ما تراهُ صالِحًا سأوافِقُ عليه. رفضَ بشدَّةٍ تِلكَ الطَّريقةَ، وقالَ لها: أنتِ مَن سترتَبطين به ولستُ أنا؛ اذْهبِي إلَى حقْلِهِ الآن بحجَّةِ أنِّي أرسلتُكِ بطعامِ الغداءِ، وبعْد ما تأتِي حدِّثيني رأيَكِ بالمُوافقةِ أو الرَّفضِ.

أنْصتتْ البِنتُ لأبيها النَّجّار وذَهبتْ مُرتبِكةً في مِشيَتِها خَجلةً في ابْتسامتِها، قدِمتْ إليه فنظرَها مِن بعيدٍ (وكان رافِعًا فأسَهُ) فرأَى وَجهًا يتلألأُ إشْراقًا، كَساهُ الخجلُ جَمالًا، وأضْفَى عليه بَهاءً، فنَسِيَ فأْسَهُ ولَم يُنزلْهُ حتَّى جاءتْ فقدَّمتْ لهُ الطَّعامَ، وتبادَلا النَّظراتِ في خَجلٍ وصمْتٍ. ثمَّ غادرَتْ المكانَ بعْدها مُسرِعةً ذاهِبةً إلَى دارِها؛ وعِندَما هَلَّتْ إلَى أبيها رأَى وجْهَها، فعَلِمَ جوابَها وتمَّتْ المُوافقةُ.

وقُبيلَ عُرسِهِ بيَومَين أَوْكلَ(حَسنين) الأرضَ إلَى بعضِ جِيرانِهِ ليعْتنوا بِها حتَّى مَجيئهُ. وذَهبَ إلَى المحْكمةِ كَي يدْفعَ المصْروفاتِ الإيجاريّةِ (إيجار الأرض) الَّتي عليه، ورافقَهُ (حسن النجّار) كَي يقْضيَا حاجاتِهما الضّروريّة مِن السَّوقِ والتّجهيزاتِ اللازِمةَ للعُرسِ.

فوصَلا إلَى المحْكمةِ في بِدايةِ صَباحِهما مُتجهَيْن للموظّفِ المُخْتصِّ، فأخْرجَ (حسنين) بِطاقتَهُ وأمْوالَهُ. فنَظرَ المُوظَّفُ إليه وأمْعنَ في اسْمِهِ قليلًا بانْدهاشٍ ونادَى العَسْكري؛ وأمرَهُ بالقَبضِ عليه؛ فارْتعدَ (حسنين) وتجمَّدَ في مكانِهِ.

فنظرَ (حسن النجّار) إلَى المُوظَّفِ مُسْتنكِرًا لِفعلتِهِ.

فقالَ له المُوظَّفُ: اسْمُهُ مُدوَّنٌ في سِجلِّ المُتّهمين وعليه أُجورٌ مُتأخِّرةٌ، فإمَّا الدّفعُ أوالحبْسُ.

فردَّ عليه قائلًا: أيُّ عقْلٍ تمْلِكُ أيُّها المُوظَّفُ، أجانٍ هو ليأتِي إليكَ لتُسْجنَهُ!.

فقالَ : هَذه الأوامِر وأنا أطبِّقُ القانونَ. وأخذَ العَسْكري الفلّاح إلَى الزِّنزانَةِ؛ فنَظرَ (حسن) إلَى زَوجِ ابْنتِهِ بنظرةٍ حَانيةٍ، قائلًا: لا عليكَ سوفَ أتولَّى الأمْرَ.

ووَجَّهَ كَلامَهُ (بفَظاظَةٍ) لِلْموَظَّفِ، كَم علَيْه مِن الأُجورِ؟.

ــ فقالَ : ثَلاث سنواتٍ.

ــ نَعْم!، هَذا نَسيبِي وأعْرِفُهُ يُسدِّدُ ما علَيْه أوَّلًا فأوَّل.

رُبَّما هُناكَ خطأٌ، فهلَّا أسْديْتَ لي خِدمةً وبحثْتَ ودقَّقتَ في اسْمِهِ مرَّةً أخْرَى، وبَياناتِهِ الشَّخْصيَّةِ.

فلَم يَهتمّ المُوظَّفُ له أو بكَلامِهِ.

ــ فلَوَّحَ له ببِضْعةِ قُروشٍ (رُبع جنيه).

فعدَّلَ المُوظَّفُ مَوقفَهُ وحسَّنَ مِن كَلامِهِ، واسْتجابَ له في صَرامَةٍ وبحْثَ وَدَقَّقَ، فوَجدَ أنَّ ثمَّةَ تَشابُهٍ بين اسْمِ الفلَّاحِ (حَسنين) وبين أخَرٍ يحْملُ نَفْسَ الاسْمِ. فسارَعَ النّجَّار إلَى صَديقِهِ يُبشِّرُهُ البُشْرَى ويُفْرِحُهُ.

وأُطْلِقَ سَراحُهُ ودَفَعَ مَصْروفاتِهِ؛ وخرجَا ولكِنَّ الكَآبةُ عَلَتْ ملامِحَهُ (حَسنين)، فلاحَظَ النَّجَّار فقالَ له: أيُّ ظُلمٍ هَذا؟!، أُعْطيكَ وجْهًا مَمْلوءًا بالفرْحةِ والسَّعادةِ وتُقابِلُهُ بوجْهٍ عابِسٍ رافِضًا الحَياة. فردَّ عليه: أرْجو مِنكَ المَعذِرةَ فلقَدْ شاهَدتَ ما حلَّ بِي؟.

ــ نعم، أعْرِفُ ولكِنِّي أعْرِفُ أيضًا أنَّ المَوقِفَ مرَّ بسلامٍ وانْتهَى؛ فلو قُمْنا باسْتهلاكِ أوْقاتِنا في التَّفْكيرِ بأوْجاعِنا وأحْزانِنا، ما اسْتمْتَعْنا بأفْراحِنا وقُرَّة أعْيُنِنا.

ــ فرَسمَ ابْتسامةً.

وصَارا علَى امْتدادِ الشّارعِ الرَّئيسيّ الَّذي يَعجُّ بالنّاسِ والأجْناسِ، وأصْواتُهُما تَعْلو بالضَّحكاتِ حتَّى خَطفَهُما الزِّحامُ.

فَتاةُ الدَّارِ

أوَّلُ يَومٍ في كُليةِ دارِ العُلومِ عِندَ تجوُّلي، وَجدتُّ فَتاةً علَى ناحِيةٍ مِن أرْجاءِ المَدْخلِ كانَتْ كَئِيبةً لِما أصابَها مِن جَرَّاءِ الْتِحاقِها بكُليةٍ لا ترْغَبُ فيها ، أرَدتُّ تخْفيفَ ما بِها مِن الآلامِ؛
لِذا شَرعْتُ في مُغازَلتِها بكُلِّ احْتِرامٍ.

فقُلتُ لَها مِن كَثَبٍ

مالِي أرَى هَذا الوَجْهَ المُكْفَهِرّ،
بطَلْعتِهِ مُنْقَهِرَّ، وسَحائِبِهِ بُهِر.
مالِي أراهُ غيرَ مُباليًا، وكأنَّ أصابَهُ الدَّجَر.
و ما عادَ يَروقُ لصَوتِ النَّاي، وأصْبحَ حَجَر .

وما كُنتُ مُكْترثًا بكِ لوْلا أنْ رأيْتُ تِلكَ الوَجْنتيْن قَمر،
ذهبَ ضِياؤُهُما وتَبدَّلَ، وجاءَ الضَّجَر.
وتَحوَّلَ بلَونٍ شاحِبٍ نُبِض، ما كُنتُ عنْهُ راضٍ، وما أنا بقاضٍ،
غير ماجاءَ مِنْكِ فاضٍ؛ فأرَدتُّ أنْ أصْنعَ قارِبًا مِن كَلِماتٍ وأغْراضٍ،
تأْوي إليْها يا فَتاةَ الدَّارِ.
نظرَتْ إليَّ مُسْتغرِبةً، راسِمةً مَلامِحَ الضِّيقِ والسَّأَمِ.
فلَم تعِي مُفْرداتِ حَديثِي، وزادَها عَدمُ المَعْرِفةِ ضِيقًا وسأمًا،
وحَكتْ نظَراتُ عَينيْها ما كانَ يعْجزُ لِسانُها إخْبارَهُ؛
قائِلةً:
أنِّي سَئِمتُ مِن مَكْثِكَ يا فتَى، ومِن تلاعُبِكَ بالغَنَّى؛
فهلَّا ذَهبتَ عنِّي؟، فقَد ضاقتْ الدُّنيا يا عَمْرِي،
فمَرْءٌ مِثلُكَ يتَشدَّقُ بألْفاظٍ، ويتَلاعَبُ بأشْعارٍ
فليسَ لهُ عِنْدي إلَّا جُماحَ غَيْظِي.
فبعدُ ما اطَّلعْتُ علَى مَلامِحِها الحَزينةِ، تريَّثْتُ طالبًا مِنها،
هلَّا بَقِيْتي علَى الدَّرَجِ رَيْثما أعودُ ونرَى البَقَلَ؟. وقبْل انْصِرافِي.
قالتْ: أتدْري يا أخِي لقَد جِئْتَ في الوَقتِ المُناسِبِ،
فأنا أُريدُ أنْ أكْتبَ خِطابًا لعَميدِ الكُليةِ أطْلبُ مِنهُ نقْلي؛
وأنتَ خيرُ مَن يكْتبُ؛ فهلَّا أسْديْتَ لي هَذه الخِدْمةَ؟.
فخرجْنا مِن الدَّارِ تَجرُّ أنْفُسُنا فرْحةً وتعْلوها رَغْبةٌ
وتُرافِقُها سَعادةٌ، جَلسْنا وبعْدما تَعارَفْنا وتكلَّمْنا وشَرِبْنَا.
قُلتُ لَها:
هلَّا شَرَعْنا في كِتابةِ الخِطابِ؛ ماذا تُريدِينَ أنْ أكْتبَ؟.
فقالَتْ لِي: عَن أيِّ خِطابٍ تتَحدَّثُ؟! ، أه عُذرًا لقَد نَسَيْتُ.
فرَسَمْتُ ابْتسامةً علَى وَجْهي قائِلًا: مَرْحبًا بكِ في دارِنا.

فَهمَّتْ مُنْصرِفةً خَجِلَةً في مِشْيتِها؛
والْتَفتَتْ قائِلةً: أنا لا أعْرِفُ ماذا أقُولُ؛
لكنْ أتَدْري أظُنُّ أنَّ هَذه الكُليةَ لَيْستْ سيِّئةً كَما تَوقَّعْتُ.

وذَهَبَتْ مُبْتسِمةً، سَعيدةً مُرْتسِمةً.

حُلْمٌ يَتَرَاءَى

قابَلتُهُ بعدَ ثَوْرةِ الخامِسةِ والعِشْرين مِن يَناير مُسْتشْرِقَ الوَجْهِ باسِمًا، مُتفائِلًا بفَجْرٍ جَديدٍ يسْطُرُ أملًا، ويُلوِّحُ مَجْدًا. فلقَدْ مُحِيَ هَمٌّ و ثِقَلُ السِّنين، و طُوِيتْ ظُلُماتٌ تَعايَشتْ، وأنَّى لها أنْ تَصيرَ؟. في مَيْدانٍ أُزيلتْ بَراثِنُها!.

أُعْلِنتْ الفَرْحةُ وبارَكَ الشَّعبُ التَّحيَّةَ، وإنْ تَوجَّسَ مِنهُ قِلَّةٌ، يرَوْن أنَّ الظُّلْمةَ الحالِكةَ مِن المُستحيلِ أنْ تَتلاشَى أو تَنْقَضي بهذهِ السُّهولةِ في أيَّامٍ قَلائِلٍ. ولَم يكُنْ صاحِبُنا مِن هَذا النَّوعِ فكانَ باسِمَ الوَجْهِ، تقْطُرُ لِحْيَتُهُ دُموعَ فرْحةٍ، وإيماءاتُهُ دَعْوةَ شُكْرٍ لزَوالِ الغُمَّةِ.

ولَم يكُ يَخْفِي نَواياهُ، أو يُضْمرُها في ظِلِّ صِلَتِهِ الوَثيقةِ بالحِزْبِ البائِدِ، فلقَدْ رَأَى الثَّوْرةَ أَمَلًا قادِمًا، لابُدَّ أنْ نُعايشَهُ؛ وأنْ نُطالِبَ بهِ و نُساندَهُ. ولا عَجَبٌ مِن رِدَّةِ فِعْلِهِ!، فتِلكَ هي الأحْوالُ السِّياسيَّةُ!. تَرْمي بنَفْسِكَ عَبْرَ الأحْزابِ والجَماعاتِ لتَبْنيَ مُسْتقبلًا أو تَنْدمِجَ بالتَّيّاراتِ؛ فتَجْعلَ مِن نفْسِكَ وَقودَ فَسادٍ أو تَحْلُمَ بشَيءٍ مِن اسْتقْرارٍ.

وعلَى غيرِ عادَةٍ، اتَّصلَ بي عندَ مَجيئِهِ بلْدَتَهُ القَرَويّةَ، فجِئْتُهُ راكِضًا أسْألُهُ الخَبرَ؟. فرَدَّ عليَّ مُبْتسِمَ الوَجْهِ غيرَ عابِسٍ، بأنَّهُ يُريدُ المُشارَكةَ في صَنْعَةِ بَلْدتِهِ مُنْفقًا مِن عِلْمِهِ، ووَقْتِهِ غيرَ مُضْنٍ أو حالِسٍ. قائلًا لي: اتَّصلتُ بعِدَّةِ أصْدِقاءٍ للمُشارَكةِ والعَملِ، فهَل تُشارِكُ مَعَنا؟. قُلتُ: إنْ كانتْ وَفْقَ تَخصُّصِي، بلا شَكٍّ أُشارِكُ.

ــ قال: مِمَّا تَعلَّمتَهُ مِن فَنِّ الإدارَةِ؛ أنْ تَضعَ الشَّخْصَ في مَكانِهِ. فأنتَ مُهِمَّتُكَ مَعَنا إعْلاميَّةٌ فهَل تُوافِقُ؟.

ــ قُلتُ: بكُلِّ تأْكيدٍ أنا راغِبٌ، علَى بَركةِ اللهِ وعَوْنِهِ. وانْتهَى حِوارُنا كَما انْتَهتْ اجْتِماعاتُنا بأطْيافِ البَلْدةِ، وقامَ بتَوْزيعِ الأدْوارِ، وأظْهرَ بَراعتَهُ ومَهارتَهُ، وانْخراطَهُ في العَملِ الاجْتِماعِيّ والخَدَميّ؛ مِمَّا جَعلَهُ يتَفوَّقُ علَى قُرَنائِهِ مِن التّابعين للحِزْبِ الحاكِمِ الَّذي كان يُجَرَّمُ، أمَّا هو فيَصولُ ويَجولُ؛ رُبَّما لأنَّهُ غيرُ مَعْروفِ الانْتِماءِ لَدَى بَلْدتِهِ، ناهِيكَ أنَّهُ يَقْطُنُ خارِجَ البَلْدةِ دَومًا.

ولا يأْتِيها إلَّا زائِرًا لوالِدَيْهِ، فيقْضِي بعْضًا مِن وَقْتٍ و يَرْحلُ، لكِنَّ حُلْمُهُ بأنْ يُمثِّلَ الآلافَ مِن المُواطِنين في البَرْلَمانِ والانْتِخاباتِ القادِمةِ جَعلَهُ يتَواجَدُ بصِفةٍ مُسْتمِرَّةٍ.

وقَدْ أسَرَّ لَنا ذاتَ مرَّةٍ عَن حُلْمِهِ هَذا. فدُهِشْتُ أنا وزَميلي!، فهَذا يعْني أنَّنا كُنَّا وَفْقَ بَرْنامَجٍ يُعِدُّهُ ونُقدِّمُهُ معَهُ!. تَركْناهُ ورَحلْنا وفي قُلوبِنا بأْسٌ وغَيْظٌ، وهُوِّنَ عَلَيْنا؛ ما ضَرَّ البَلْدةِ لو أخَذْنا خِدْمتَهُ، وتَركْنا للنّاسِ تَحْديدَ

مَصيرَهُ؟!. علَى الأقَلِّ هو أفْضلُ حالًا مِمَّن يُخَرِّبون ويَنْهَبون ولا يَسْتَحون، وغيرُ ذَلِكَ لا يُقدِّمون، سِوَى أنَّهُم يَعْتَلون المَناصِبَ ليَقْتاتُوا دُونَ مُشاطَرةِ المُواطِنين.

وانْقَضتْ أيّامٌ ومَضتْ شُهورٌ، وجاءَ مَوْعِدُ الانْتِخاباتِ، حيْثُ السَّاحاتُ فارِغةٌ لمَن يُقدِّمُ نفْسَهُ. لكِنْ هَيْهاتَ؛ فلقَدْ جُعِلتْ الدَّوائرُ الانْتِخابيّةُ بَراحًا، يَمْرحُ فيها المُرشَّحُ ويَحْتارُ، لا يَجْني مِنها أيَّةَ ثِمارٍ، فقطْ الأحْزابُ الكُبْرَى، والجَماعاتُ هي مَن تَحْصُدُ المَقاعِدَ، وتَجْني الأصْواتَ ولَم يَكُ حينَئِذٍ مُنْضمًّا لأيّ تَيّارٍ؛ لِذا لَم يَنلْ إلَّا ضَياعَ الوَقْتِ والمالِ. ونَأَى بَعيدًا عنَّا مُنْكسِرَ الحالِ لفَتْرةٍ، وانْقطَعتْ بيْنَنا الاتِّصالاتُ. وجاءَ بعدَ فَتْرةٍ يَصِلُ المَقْطوعَ، ويُخْبِرُنا بأنَّهُ يُديرُ حَمْلةً لمُرشَّحِ رِئاسَةٍ، طالِبًا مِنّا مُساعَدتَهُ علَى اسْتِحْياءٍ.

ـ دارَ بخَلَدِنا قبْلَ الإجابةِ: أنَّهُ رَأَى المُواطِنين غُثاءً لا يُقَدِّمون لحُلْمِهِ شَيْئًا؛ فالْتَحقَ برَكْبِ مُرشَّحٍ كي يَضْمنَ تَقدُّمَ حُلْمِهِ أو يُلْقِي دونَهُ المَعاذِرَ. فلَم نَنْطِقْ حينَها بكَلمةٍ، سِوَى ابْتِسامةٍ، تُخْبِرُهُ برَفْضِنا وتَركْناهُ يُلاقِي مَصيرَهُ. وبعدَ شُهورٍ مِن المَعْركَةِ الانْتِخابيَّةِ؛ سَقَطَ مُرشَّحُهُ كَما سَقَطَ قِناعُهُ الَّذي زابَ مِن حَمَأةِ الصِّراعاتِ السِّياسيَّةِ، وحِيلَ بينَهُ وبين ما يَشْتهِي اضْطِراباتُ البِلادِ، والتَّكالُبُ علَى المَصالِحِ؛ حتَّى جَعَلاهُ مُذبْذَبًا بين مَن هو فائِزٍ، ومَن هو مالِكٍ؟.

حتَّى جاءَتْهُ ثَوْرةُ الثَّلاثِين مِن يونْيو، مُزيَّنةً للنّاظِرين، تَحْمِلُ لهُ أنينًا؛ لتُودِي بحُلْمِهِ إلَى الجَحيمِ، وتَرْحمُهُ مِن هَذا السَّرابِ الخاطِفِ، لتُعَتِّمَ علَى أُناسٍ، وتُشْرِقَ علَى وافِدين؛ تَنْزعُ مِنْهُم سُلْطانًا لتُودِعَهُ لآخَرين. أحَسَّ بوَخْزةٍ حِيالَها، ولم يُعامِلْها بمَنْطِقِهِ القَديمِ؛ أو يَتجنَّبْها كَمُرشَّحِهِ الرِّئاسيّ القَديرِ، فنَزَلَ ليُقاتِلَ عَن حُلْمِهِ عَبرَ المُظاهَراتِ، ويَرْفعُ صَوتَهُ بالنِّداءاتِ:

أي يَسْقطُ حُكْمَ السِّنين، مِن عَسْكَرٍ وإرْهابيِّين.
واصْطَدمَتْ نِداءاتُهُ بالعِصيّ والغازاتِ حتَّى أُقْفِلتْ مِنهُ الأنْفاسُ؛ فغُمِيَ عليْهِ، فجَرُّوهُ مُكَبَّلًا بالحَديدِ، مُساقًا إلَى حَبْسِهِ بتُهْمةِ التَّحْريضِ. وأصْبحَ مَن كانَ حُلْمُهُ يَتراءَى، صارَ حُلْمُهُ أنْ يخْرُجَ سالِمًا مُعافًى.
وهَذهِ لَعْنةُ الثَّوَراتِ ظاهِرُها مُطالِبةً بالتَّغْييرِ والعَدالةِ الاجْتِماعيّةِ، وفي فَحْواها انْتِقامٌ شَرِسٌ وإبادَةٌ جَماعيّةٌ؛ فلا تُبْقِي ولا تَذَرُ، مِن رأْيٍ قائِمٍ أو مُخالِفٍ. وهَذا ما رَأَيْناهُ بينَ الثَّوْرَتيْن مِن: أشْلاءٍ تَبعْثرَتْ، ودِماءٍ انْتُهِكَتْ، وأحْزابٍ تَجمَّعَتْ، وجَماعاتٍ تَفرَّقَتْ؛ كلٌّ يَسْحقُ الآخَرَ و يُكِنُّ لهُ البُغْضَ. حتَّى صارَتْ الثَّوَراتُ: فَنَّ الفَناءِ والخَلاصِ، مِن أبْناءِ شَعْبِها الثَّائِرِ، أكانَ فاسِدًا أو مِغْوارًا.

وهَذا حالُ صاحِبِنا مَرْمِيًّا في غَيابَةِ المُعْتقَلِ لا يَسِعُهُ إلَّا أنْ يَنْظُرَ إلَى ضَوْءِ السَّماءِ في تِيهٍ بين حُلْمٍ تَلاشَى، ومُسْتقْبلٍ مُظْلِمٍ تَراءَى.

المحتويات

١١ رجُلٌ ابْتلعتْهُ السِّياسة
١٥ جَولةٌ صباحيّةٌ
١٩ الأرَاجيفُ
٢٣ فتاةُ المُوَاصلاتِ
٢٧ نحْو الطَّريق السَّريع
٣١ آهٍ لوْ كانتْ تحمِلُ هاتِفًا
٣٥ لَيلةٌ في الشّارِعِ
٣٩ قَيْدُ التَّطَوُّرِ
٤٣ ثَلاثةُ قُروشٍ
٤٧ فتاةُ الفراخ
٥١ خُذْ مِنِّي و لا تُناقِشْني
٥٥ العَجوزُ و الرِّمالُ
٥٩ فتاةُ الأحلام
٦٣ فَتَى المَاشيَةِ
٦٧ سَعْدُ الوَفِيّ
٧١ الضُّفْدعُ صَديقِي
٧٥ خَسارَتي تَعنِي تَحطيمَكِ
٧٧ فُسْتاني الجَديد

٨١ فتاةُ أبيها
٨٥ الفلّاحُ و النجّار
٨٩ فتاةُ الدَّار
٩٣ حُلْمٌ يَتَراءَى

التواصل مع الكاتب

www.facebook.com/ragab.hamza

الهاتف / ٠١٠٠٢٣٠٠١٠٨

٠١٠٠٧١٢٣٣٣٠

انتهى